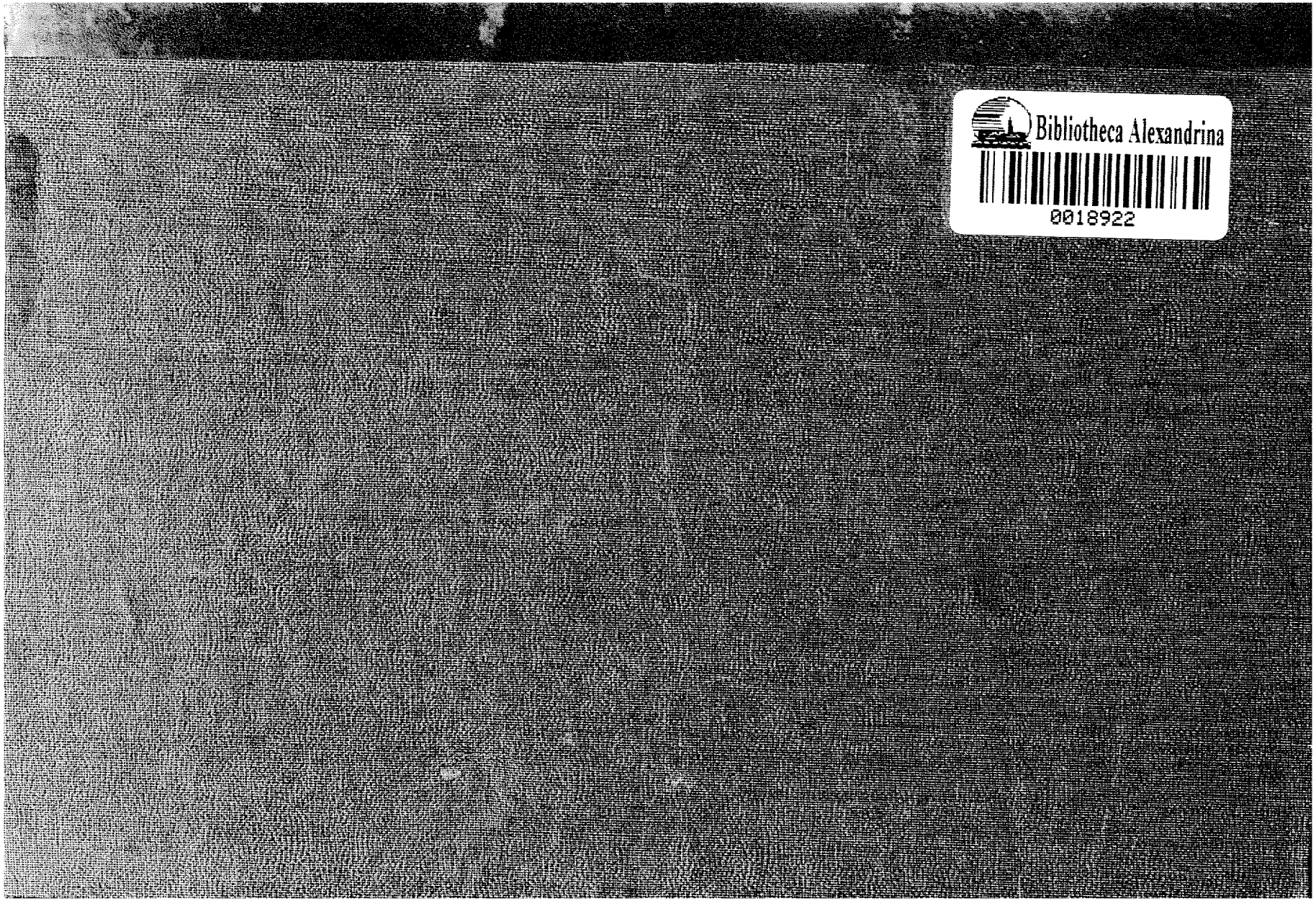
Bibliotheca Alexandrina
0018922

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تفسير أبي السعود

أو

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

لقاضي القضاة أبي السعود بن محمد العمادي الحنفي

٩٠٠ هـ — ٩٨٢ هـ

تحقيق

عبد القادر أحمد عطا

الجزء الرابع

بطلب من الناشر

مكتبة الرياض الحديثة

بالرياض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

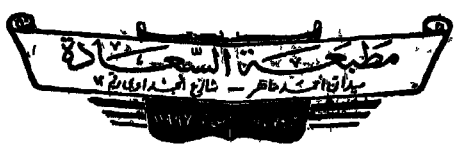

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحج

مكية إلا ست آيات من (هذان خصمان) إلى (صراط الحميد)
وهى ثمان وسبعون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها الناس اتقوا ربكم) خطاب يعم حكمه المكلفين عند النزول ومن سينتظم فى سلكهم بعد من الموجودين القاصرين عن رتبة التكليف والحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة وإن كان خطاب المشافهة مختصا بالفريق الأول على الوجه الذى مر تقريره فى مطلع سورة النساء ولفظ الناس ينتظم الذكور والإناث حقيقة وأما صيغة جمع المذكور فواردة على نهج التغليب لعدم تناولها للإناث حقيقة إلا عند الحنابلة والمأمور به مطلق التقوى الذى هو التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك ويندرج فيه الإيمان بالله واليوم الآخر حسبما ورد به الشرع اندراجا أوليا والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأييد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال به ترهيبا وترغيبا أي احذروا عقوبة مالك أموركم ومربيكم وقوله تعالى : (إن زلزلة الساعة شىء عظيم) تعليل لموجب الأمر بذكر بعض عقوباته الهائلة فإن ملاحظة عظمها وهولها وفظاعة ما فى حيز من مباديه ومقدماته من الأحوال والأهوال التى لا مناص منها سوى التدرع بلباس التقوى مما يوجب مزيد الاعتناء بملابسته وملازمته لا محالة والزلزلة التحريك الشديد والإزعاج العنيف بطريق التكرير بحيث يزيل الأشياء من مقارها ويخرجها عن مراكزها وإضافتها إلى الساعة إما إضافة المصدر إلى فاعله على المجاز الحكمى كأنها هى التى تزلزل الأشياء أو إضافته إلى الظرف إما بإجرائه مجرى المفعول به اتساعا

أو بتقدير فى كما فى قوله تعالى : (بل مكر الليل والنهار) وهى الزلزلة المذكورة فى قوله تعالى : (إذا زلزلت الأرض زلزالها) عن الحسن : أنها تكون يوم القيامة وعن ابن عباس رضى الله عنهما زلزلة الساعة قيامها ، وعن علقمة والشعبى : أنها قبل طلوع الشمس من مغربها ، فإضافتها إلى الساعة حينئذ لكونها من أشراطها ، وفى التعبير عنها بالشىء إيذان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها والعبارة ضيقة لا تحيط بها إلا على وجه الإبهام وقوله تعالى :

﴿ يوم ترونها ﴾ منتصب بما بعده قدم عليه اهتماما به والضمير للزلزلة أى وقت رؤيتكم إياها ومشاهدتكم لهول مطلعها ﴿ تذهل كل مرضعة ﴾ أى مباشرة للإرضاع ﴿ عما أرضعت ﴾ أى تغفل وتذهل مع دهشة عما هى بصدد إرضاعه من طفلها الذى ألقمته(١) ثديها والتعبير عنه بما دون من لتأكيد الذهول وكونه بحيث لا يخطر ببالها أنه ماذا لا أنها تعرف شيئيته لكن لا تدرى من هو بخصوصه وقيل ما مصدرية أى تذهل عن إرضاعها والأول أدل على شدة الهول وكمال الانزعاج . وقرىء تذهل من الإذهال مبنياً للمفعول أو مبنيا للفاعل مع نصب كل ، أى تذهلها الزلزلة ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ أى تلقى جنينها لغير تمام كما أن المرضعة تذهل عن ولدها لغير فطام وهذا ظاهر على قول علقمة والشعبى وأما على ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فقد قيل إنه تمثيل لتهويل الأمر وفيه أن الأمر حينئذ أشد من ذلك وأعظم وأهول مما وصف وأطم وقيل : إن ذلك يكون عند النفخة الثانية ، فإنهم يقومون على ما صعقوا فى النفخة الأولى فتقوم المرضعة على إرضاعها والحامل على حملها ولا ريب فى أن قيام الناس من قبورهم بعد النفخة الثانية لا قبلها حتى يتصور ما ذكر ﴿ وترى الناس ﴾ بفتح التاء والراء على خطاب كل أحد من المخاطبين برؤية الزلزلة والاختلاف بالجمعية والإفراد لما أن المرئى فى الأول هى الزلزلة

(١) فى ١١ ـ أرضعته

التى يشاهدها الجميع وفى الثانى حال من عدا المخاطب منهم فلا بد من إفراد المخاطب على وجه يعم كل واحد منهم لكل من غير اعتبار اتصافه بتلك الحالة فإن المراد بيان تأثير الزلزلة فى المرئى لا فى الرائى باختلاف مشاعره لأن مداره حيثية رؤيته للزلزلة لا لغيرها كأنه قيل ويصير الناس سكارى إلخ وإنما أوثر عليه ما فى التنزيل للإيذان بكمال ظهور تلك الحالة فيهم وبلوغها من الجلاء إلى حد لا يكاد يخفى على أحد أى يراهم كل أحد ﴿ سكارى ﴾ أى كأنهم سكارى ﴿ وما هم بسكارى ﴾ حقيقة ﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ فيرهقهم هوله ويطير عقولهم ويسلب تمييزهم فهو الذى جعلهم كما وصفوا وقرىء ترى بضم التاء وفتح الراء مسندا إلى المخاطب من رأيتك قائماً أو رؤيتك قائما والناس منصوب أى تظنهم سكارى وقرىء برفع الناس على إسناد الفعل المجهول إليه والتأنيث على تأويل الجماعة وقرىء ترى بضم التاء وكسر الراء أى ترى الزلزلة الخلق جميع الناس سكارى وقرىء سكرى وسكرى كعطشى وجوعى إجراء للسكر مجرى العلل .

﴿ ومن الناس ﴾ كلام مبتدأ جىء به إثر بيان عظم شأن الساعة المنبئة عن البعث بيانا لحال بعض المنكرين لها ومحل الجار الرفع على الابتداء إما بحمله على المعنى أو بتقدير ما يتعلق به كما مر مرارا أى وبعض الناس أو وبعض كائن من الناس ﴿ من يجادل فى الله ﴾ أى فى شأنه تعالى ويقول فيه ما لا خير فيه من الأباطيل وقوله تعالى ﴿ بغير علم ﴾ حال من ضمير يجادل موضحة لما يشعر بها المجادلة من الجهل أى ملابسا بغير علم . روى أنها نزلت فى النضر بن الحرث وكان جدلا يقول الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين ولا بعث بعد الموت وهى عامة له ولأضرابه من العتاة المتمردين ﴿ ويتبع ﴾ أى فيما يتعاطاه من المجادلة أو فى كل ما يأتى وما يذر من الأمور الباطلة التى من جملتها ذلك ﴿ كل شيطان مريد ﴾ عات متمرد متجرد للفساد وأصله العرى المنبىء عن التحض له كالتشمر ولعله مأخوذ من تجرد المصارعين عند المصارعة قال الزجاج المريد والمارد المرتفع الأملس والمراد إما رؤساء الكفرة الذين يدعون من

دونهم إلى الكفر وإما إبليس وجنوده وقوله تعالى ﴿ كتب عليه ﴾ أى على الشيطان صفة أخرى له وقوله تعالى ﴿ أنه ﴾ فاعل كتب والضمير للشأن أى رقم به لظهور ذلك من حاله أن الشأن ﴿ من تولاه ﴾ أى اتخذه وليا وتبعه ﴿ فإنه يضله ﴾ بالفتح على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف والجملة جواب الشرط إن جعلت من شرطية وخبر لها إن جعلت موصولة متضمنة لمعنى الشرط أى من تولاه فشأنه أن يضله عن طريق الجنة أو طريق الحق أو فحق أنه يضله قطعا وقيل فإنه معطوف على أنه وفيه من التعسف ما لا يخفى وقيل وقيل مما لا يخلو عن التحمل والتأويل وقرىء فإنه بالكسر على أنه خبر لمن أو جواب لها وقرىء بالكسر فيهما على حكاية المكتوب كما هو مثل ما فى قولك كتبت إن الله يأمر بالعدل والإحسان أو على إضمار القول أو تضمين الكتب معناه على رأى من يراه ﴿ ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ بحمله على مباشرة ما يؤدى إليه من السيئات .

الرد على منكرى البعث

﴿ يا أيها الناس ﴾ إثر ما حكى أحوال المجادلين بغير علم وأشير إلى ما يؤول إليه أمرهم أقيمت الحجة الدالة على تحقق ما جادلوا فيه من البعث ﴿ إن كنتم فى ريب من البعث ﴾ من إمكانه وكونه مقدورا له تعالى أو من وقوعه وقرىء من البعث بالتحريك كالجلب فى الجلب والتعبير عن اعتقادهم فى حقه بالريب مع التنكير المنبىء عن القلة مع أنهم جازمون باستحالته وإيراد كلمة الشك مع تقرر حالهم فى ذلك وإيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال إن ارتبتم فى البعث فقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) ﴿ فإنا خلقناكم ﴾ أى فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم ، فإنا خلقناكم أى خلقنا كل فرد منكم ﴿ من تراب ﴾ [فى][1] ضمن خلق آدم منه خلقا إجماليا

(١) سقطت من ١ ه

فإن خلق كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام إذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء إجماليا مستتبعا بجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام من التراب خلقا للكل منه كما مر تحقيقه مرارا ﴿ثم من نطفة﴾ أى ثم خلقنا كم خلقا تفصيليا من نطفة أى من منى من النطف الذى هو الصب ﴿ثم من علقة﴾ أى قطعة من الدم جامدة متكونة من المنى ﴿ثم من مضغة﴾ أى قطعة من اللحم متكونة[1] من العلقة وهى فى الأصل مقدار ما يمضغ ﴿مخلقه﴾ بالجر صفة مضغة أى مستبينة الخلق مصورة ﴿وغير مخلقة﴾ أى لم يستبن خلقها وصورتها بعد والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أولا قطعة لم يظهر فيها شىء من الأعضاء ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً وكان مقتضى الترتيب السابق المبنى على التدرج من المبادىء البعيدة إلى القريبة أن يقدم غير المخلقة على المخلقة وإنما أخرت عنها لأنها عدم الملكة هذا وقد فسرتا بالمسواة وغير المسواة وبالتامة والساقطة وليس بذاك وفى جعل كل واحدة من هذه المراتب مبدأ لخلقهم لا لخلق ما بعدها من المراتب كما فى قوله تعالى ﴿ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة﴾ الآية مزيد دلالة على عظيم قدرته تعالى وكسر لسورة استبعادهم .

﴿لنبين لكم﴾ متعلق بخلقنا وترك المفعول لتفخيمه كما وكيفا أى خلقنا كم على هذا النمط البديع ليبين لكم بذلك ما لا تحصره العبارة من الحقائق والدقائق التى من جملتها سر البعث فإن من تأمل فيما ذكر من الخلق التدريجى تأملا حقيقيا جزم جزما ضروريا بأن من قدر على خلق البشر أولا من تراب لم يشم رائحة الحياة قط وإنشائه على وجه مصحح لتوليد مثله مرة بعد أخرى بتصريفه فى أطوار الخلقة وتحويله من حال إلى حال مع ما بين تلك الأطوار والأحوال من المخالفة والتباين فهو قادر على إعادته بل هو أهون فى القياس نظرا إلى الفاعل والقابل وقرىء ليبين بطريق الالتفات وقوله تعالى ﴿ونقر فى الأرحام ما نشاء﴾

(١) فى ١٠ : تكونت من العلقة .

استئناف مسوق لبيان حالهم بعد تمام خلقهم وعدم نظم هذا وما عطف عليه فى سلك الخلق المعلل بالتبيين مع كونهما من متمماته ومن مبادى التبيين أيضا لما أن دلالة الأول على كمال قدرته تعالى على جميع المقدورات التى من جملتها البعث المبحوث عنه أجلى وأظهر أى ونحن نقر فى الأرحام بعد ذلك ما نشاء أن نقره فيها .

﴿ إلى أجل مسمى ﴾ هو وقت الوضع وأدناه ستة أشهر وأقصاه سنتان وقيل أربع سنين وفيه إشارة إلى أن بعض ما فى الأرحام لا يشاء الله تعالى إقراره فيها بعد تكامل خلقه فتسقطه والتعرض للإزلاق لا يناسب المقام لأن الكلام فيما جرى عليه أطوار الخلق وهذا صريح فى أن المراد بغير المخلقة ليس من ولد ناقصا أو معيبا وأن ما فصل إلى هنا هى الأطوار المتواردة على المولود قبل الولادة وقرىء يقر بالياء ونقر ويقر بضم القاف من قررت الماء إذا صببته ﴿ ثم نخرجكم ﴾ أى من بطون أمهاتكم بعد إقراركم فيها عند تمام الأجل المسمى ﴿ طفلا ﴾ أى حال كونكم أطفالا والإفراد باعتبار كل واحد منهم أو بإرادة الجنس المنتظم للواحد والمتعدد وقرىء يخرجكم بالياء وقوله تعالى :

﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ علة لنخرجكم معطوفة على علة أخرى له مناسبة لها كأنه قيل ثم نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً ثم لتبلغوا كمالكم فى القوة والعقل والتمييز وقيل التقدير ثم نمهلكم لتبلغوا إلخ وما قيل إنه معطوف على نبين مخل بجزالة النظم الكريم هذا وقد قرىء ما قبله من الفعلين بالنصب حكاية وغيبة فهو حينئذ عطف على نبين مثلهما والمعنى خلقناكم على التدريج المذكور لغايتين مترتبتين عليه إحداهما أن نبين شئوننا والثانية أن نقركم فى الأرحام ثم نخرجكم صغارا ثم لتبلغوا أشدكم وتقديم التبيين على ما بعده مع أن حصوله بالفعل بعد الكل للإيذان بأنه غاية الغايات ومقصود بالذات وإعادة اللام ههنا مع تجريد الأولين عنها للإشعار بأصالته فى الغرضية بالنسبة إليهما إذ عليه يدور التكليف المؤدى إلى السعادة والشقاوة وإيثار البلوغ مسندا إلى المخاطبين على التبليغ مسندا إليه تعالى كالأفعال السابقة لأنه المناسب لبيان حال اتصافهم بالكمال

واستقلالهم بمبدئية الآثار والأفعال والأشد من ألفاظ الجموع التى لم يستعمل لها واحد كالأسدة والقتود وكأنها حين كانت شدة فى غير شىء بنيت على لفظ الجمع ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ أى بعد بلوغ الأشد أو قبله وقرىء يتوفى مبنيا للفاعل أى يتوفاه الله تعالى ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ وهو الهرم والخرف وقرىء بسكون الميم وإيراد الرد والتوفى على صيغة المبنى للمفعول للجرى على سنن الكبرياء لتعين الفاعل ﴿ لكيلا يعلم من بعد علم ﴾ أى علم كثير ﴿ شيئا ﴾ أى شيئاً من الأشياء أو شيئا من العلم مبالغة فى انتقاص علمه وينكر ما عرفه ويعجز عما قدر عليه وفيه من التنبيه على صحة البعث ما لا يخفى .

﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ حجة أخرى على صحة البعث والخطاب لكل أحد ممن يتأتى منه الرؤية وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وهى بصرية وهامدة حال من الأرض أى ميتة يابسة من همدت النار إذا صارت رمادا ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء ﴾ أى المطر ﴿ اهتزت ﴾ تحركت بالنبات ﴿ وربت ﴾ انتفخت وازدادت ، وقرىء ربأت أى ارتفعت ﴿ وأنبتت من كل زوج ﴾ أى صنف ﴿ بهيج ﴾ حسن رائق يسر ناظره ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ كلام مستأنف جىء به إثر تحقيق حقية البعث وإقامة البرهان عليه من العالمين الإنسانى والنباتى لبيان أن ذلك من آثار ألوهيته تعالى وأحكام شئونه الذاتية والوصفية والفعلية وأن ما ينكرون وجوده بل إمكانه من إتيان الساعة والبعث من أسباب تلك الآثار العجيبة التى يشاهدونها فى الأنفس والآفاق ومبادى صدورها عنه تعالى وفيه من الإيذان بقوة الدليل وأصالة المدلول فى التحقق وإظهار بطلان إنكاره ما لا يخفى فإن إنكار تحقق السبب مع الجزم بتحقق المسبب مما يقضى ببطلانه بديهة العقول والمراد بالحق هو الثابت الذى يحق ثبوته لا محالة لكونه لذاته لا الثابت مطلقا وذلك إشارة إلى ما ذكر من خلق الإنسان على أطوار مختلفة وتصريفه فى أحوال متباينة وإحياء الأرض بعد موتها وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته فى الكمال وهو مبتدأ خبره

الجار والمجرور أى ذلك الصنع البديع حاصل بسبب أنه تعالى هو الحق وحده فى ذاته وصفاته وأفعاله المحقق لما سواه من الأشياء ﴿ وأنه يحيى الموتى ﴾ أى شأنه وعادته إحياؤها وحاصله أنه تعالى قادر على إحيائها بدءاً وإعادة وإلا لما أحيا النطفة والأرض الميتة مرارا بعد مرار وما تفيده صيغة المضارع من التجدد إنما هو باعتبار تعلق القدرة ومتعلقها لا باعتبار نفسها ﴿ وأنه على كل شىء قدير ﴾ أى مبالغ فى القدرة وإلا لما أوجد هذه الموجودات الفائتة للحصر التى من جملتها ما ذكر وأما الاستدلال على ذلك بأن قدرته تعالى لذاته الذى نسبته إلى الكل سواء فلما دلت المشاهدة على قدرته على إحياء بعض الأموات لزم اقتداره على إحياء كلها فمنشؤه الغفول عما سيق له النظم الكريم من بيان كون الآثار الخاصة المذكورة من فروع القدرة العامة التامة ومسبباتها وتخصيص إحياء الموتى بالذكر مع كونه من جملة الأشياء المقدور عليها للتصريح بما فيه النزاع والدفع فى نحو المنكرين وتقديمه لإبراز الاعتناء به .

﴿ وأن الساعة آتية ﴾ أى فيما سيأتى وإيثار صيغة الفاعل على الفعل للدلالة على تحقق إتيانها وتقرره البتة لاقتضاء الحكمة إياه لا محاله وتعليله بأن التغير من مقدمات الانصرام وطلائعه مبنى على ما ذكر من الغفول وقوله تعالى ﴿ لا ريب فيها ﴾ إما خبر ثان لأن أو حال من ضمير الساعة فى الخبر ومعنى نفى الريب عنها أنها فى ظهور أمرها وضوح دلائلها التكوينية والتنزيلية بحيث ليس فيها مظنة أن يرتاب فى إتيانها حسبما مر فى مطلع سورة البقرة والجملة عطف على المجرور بالباء كما قبلها من الجملتين داخلة مثلهما فى حيز السببية وكذا قوله عز وجل ﴿ وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ لكن لا من حيث أن إتيان الساعة وبعث الموتى مؤثران فيما ذكر من أفاعيله تعالى تأثير القدرة فيها بل من حيث إن كلا منهما سبب داع له عز وجل بموجب رأفته بالعباد المبنية على الحكم البالغة إلى ماذكر من خلقهم ومن إحياء الأرض الميتة على نمط بديع صالح للاستشهاد به على مكانهما ليتأملوا فى ذلك ويستدلوا به على وقوعهما لا محالة ويصدقوا بما

ينطق بهما من الوحى المبين وينالوا به السعادة الأبدية ولولا ذلك لما فعل تعالى ما فعل بل لما خلق العالم رأسا وهذا كما ترى من أحكام حقيقته تعالى فى صفاته وكونها فى غاية الكمال وقد جعل إتيان الساعة وبعث من فى القبور ليكونهما من روادف الحكمة كناية عن كونه تعالى حكيما كأنه قيل فلك بسبب أنه تعالى قادر على إحياء الموتى وعلى كل مقدور وأنه حكيم لا يخلف ميعاده وقد وعد بالساعة والبعث فلا بد أن يفى بما وعد وأنت خبير بأن مآله الاستدلال بحكمته تعالى على إتيان الساعة والبعث وليس الكلام فى ذلك بل إنما هو فى سببيتهما لما مر من خلق الإنسان وإحياء الأرض فتأمل وكن على الحق المبين وقيل قوله تعالى (وأن الساعة آتية) ليس معطوفا على المجرور بالباء ، ولا داخلا فى حيز السببية بل هو خبر والمبتدأ محذوف لفهم المعنى والتقدير والأمر أن الساعة آتية وأن الثانية معطوفة على الأولى وقيل المعنى ذلك لتعلموا بأن الله هو الحق الآيتين .

الراسخون فى الكفر والمذبذبون فيه

﴿ ومن الناس من يجادل فى الله ﴾ هو أبو جهل بن هشام حسبما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقيل هو من يتصدى لإضلال الناس وإغوائهم كائنا من كان كما أن الأول من يقلدهم على أن الشيطان عبارة عن المضل المغوى على الإطلاق ﴿ بغير علم ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من ضمير يجادل أى كائنا بغير علم والمراد العلم الضرورى كما أن المراد بالهدى فى قوله تعالى ﴿ ولا هدى ﴾ هو الاستدلال والنظر الصحيح الهادى إلى المعرفة ﴿ ولا كتاب منير ﴾ وحى يظهر للحق أى يجادل فى شأنه تعالى من غير تمسك بمقدمة ضرورية ولا بحجة نظرية ولا ببرهان سمعى كما فى قوله تعالى (ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم) وأما ما قيل من أن المراد به المجادل الأول والتكرير للتأكيد والتمهيد لما بعده من بيان أنه لا سند له من استدلال أو وحى فلا يساعده النظم الكريم ، كيف لا وإن وصفه باتباع كل شيطان موصوف

بما ذكر يغنى عن وصفه بالعراء عن الدليل العقلى والسمعى ﴿ ثانى عطفه ﴾ حال أخرى من فاعل يجادل أى عاطفا لجانبه وطاويا كشحه معرضا متكبرا فإن ثنى العطف كناية عن التكبر وقرىء بفتح العين أى مانعا لتعطفه .

﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ متعلق بيجادل فإن غرضه الإضلال عنه وإن لم يعترف بأنه إضلال والمراد به إما الإخراج من الهدى إلى الضلال فالمفعول من يجادله من المؤمنين أو الناس جميعاً بتغليب المؤمنين على غيرهم وإما التثبيت على الضلال أو الزيادة عليه مجازاً فالمفعول هم الكفرة خاصة وقرىء بفتح الياء وجعل ضلاله غاية لجداله من حيث أن المراد به الضلال المبين الذى لا هداية له بعده مع تمكنه منها قبل ذلك ﴿ له فى الدنيا خزى ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان نتيجة ما سلكه من الطريقة أى يثبت له فى الدنيا بسبب ما فعله خزى وهو ما أصابه يوم بدر من القتل والصغار ﴿ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ أى النار المحرقة .

﴿ ذلك ﴾ أى ما ذكر من العذاب الدنيوى والأخروى وما فيه من معنى البعد للإيذان بكونه فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ بما قدمت يداك ﴾ أى بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصى وإسناده إلى يديه لما أن الاكتساب عادة يكون بالأيدى والالتفات لتأكيد الوعيد وتشديد التهديد ومحل أن فى قوله عز وعلا ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ الرفع على أنه خبر مبتدأ أى والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم والتعبير عن ذلك بنفى الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعا على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغاً قد مر تحقيقه فى سورة آل عمران والجملة اعتراض تذييلى[1] مقرر لمضمون ما قبلها وأما ما قيل من أن محل أن هو الجر بالعطف على ما قدمت فقد عرفت حاله فى سورة الأنفال ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ شروع فى بيان حال المذبذبين إثر بيان حال المجاهرين

(١) فى ١٠ : التذييل .

أى ومنهم من يعبده [سبحانه](٢) وتعالى على طرف من الدين لا ثبات له فيه كالذى ينحرف إلى طرف الجيش فإن أحس بظفر قر وإلا فر ﴿ فإن أصابه خير ﴾ أى دنيوى من الصحة والسعة ﴿ اطمأن به ﴾ أى ثبت على ما كان عليه ظاهراً لا أنه اطمأن به اطمئنان المؤمنين الذين لا يلويهم عنه صارف ولا يثنيهم عاطف ﴿ وإن أصابته فتنة ﴾ أى شىء يفتتن به من مكروه يعتريه فى نفسه أو أهله أو ماله ﴿ انقلب على وجهه ﴾ روى أنها نزلت فى أعاريب قدموا المدينة وكان أحدهم إذا صح بدنه ونتجت فرسه مهراً سريا وولدت امرأته ولدا سويا وكثر ماله وماشيته قال ما أصبت منذ دخلت فى دينى هذا إلا خيرا واطمأن وإن كان الأمر بخلافه قال ما أصبت إلا شراً وانقلب وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن يهوديا أسلم فأصابته مصائب فتشاءم بالإسلام فأتى النبى عليه الصلاة والسلام فقال أقلنى فقال عليه السلام إن الإسلام لا يقال فنزلت وقيل نزلت فى المؤلفة قلوبهم .

﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ فقدهما وضيعهما بذهاب عصمته وحبوط عمله بالارتداد وقرىء خاسر بالنصب على الحال والرفع على الفاعلية ووضع الظاهر موضع الضمير تنصيصا على خسرانه أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ﴿ ذلك ﴾ أى ما ذكر من الخسران وما فيه من معنى البعد للإيذان بكونه فى غاية ما يكون ﴿ هو الخسران المبين ﴾ الواضح كونه خسرانا إذ لا خسران مثله ﴿ يدعو من دون الله ﴾ استئناف مبين لعظم الخسران أى يعبد متجاوزا عبادة الله تعالى ﴿ ما يضره ﴾ إذا لم يعبده ﴿ ومالا ينفعه ﴾ إن عبده أى جمادا ليس من شأنه النفع كما يلوح به تكرير كلمة ما ﴿ ذلك ﴾ الدعاء ﴿ هو الضلال البعيد ﴾ عن الحق والهدى مستعار من ضلال من أبعد فى التيه ضالا عن الطريق ﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ استئناف مسوق لبيان مآل دعائه المذكور وتقرير كونه ضلالا بعيدا مع إزاحة ما عسى يتوهم من نفى الضرر عن معبوده بطريق

---

(١) سقطت من ط .

المباشرة نفيه عنه بطريق التصييب أيضا فالدعاء بمعنى القول واللام داخلة على الجملة الواقعة مقولا له ومن مبتدأ وضره مبتدأ ثان خبره أقرب والجملة صلة للمبتدأ الأول وقوله تعالى ﴿ لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ جواب لقسم مقدر هو جوابه خبر للمبتدأ الأول وإيثار من على ما مع كون معبوده جمادا وإيراد صيغة التفضيل مع خلوه عن النفع بالمرة للمبالغة فى تقبيح حاله والإمعان فى ذمه أى يقول ذلك الكافر يوم القيامة بدعاء وصراخ حين يرى تضرره بمعبوده ودخوله النار بسببه ولا يرى منه أثر النفع أصلا لمن ضره أقرب من نفعه والله لبئس الناصر هو ولبئس الصاحب هو فكيف بما هو ضرر محض عار عن النفع بالكلية ويجوز أن يكون يدعو الثانى إعادة للأول لا تأكيدا له فقط بل وتمهيدا لما بعده من بيان سوء حال معبوده إثر بيان سوء حال عبادته بقوله تعالى (ذلك هو الضلال البعيد) كأنه قيل من جهته تعالى بعد ذكر عبادته لما لا يضره ولا ينفعه يدعو ذلك ثم قيل لمن ضره أقرب من نفعه والله لبئس المولى ولبئس العشير فكلمة من وصيغة التفضيل للتهكم به وقيل اللام زائدة ومن مفعول يدعو ، ويؤيده القراءة بغير لام أى يعبد من ضره أقرب من نفعه وإيراد كلمة من وصيغة التفضيل تهكم به أيضا والجملة القسمية مستأنفة .

﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات ﴾ استئناف جىء به لبيان كمال حسن حال المؤمنين العابدين له تعالى وأن الله عز وجل يتفضل عليهم بما لا غاية وراءه من أجل المنافع وأعظم الخيرات إثر بيان غاية سوء حال الكفرة ومآلهم من فريق المجاهرين والمذبذبين وأن معبودهم لا يجديهم شيئا من النفع بل يضرهم مضرة عظيمة وأنهم يعترفون بسوء ولايته وعشرته ويذمونه مذمة تامة وقوله تعالى ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ صفة لجنات فإن أريد بها الأشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ، وإن أريد بها الأرض فلا بد من تقدير مضاف أى من تحت أشجارها ، وإن جعلت عبارة عن مجموع الأرض والأشجار فاعتبار التحتية بالنظر إلى الجزء الظاهر المصحح لإطلاق اسم الجنة على الكل كما مر تفصيله فى أوائل سورة

البقرة وقوله تعالى ﴿ إن الله يفعل ما يريد ﴾ تعليل لما قبله وتقرير له بطريق التحقيق أى يفعل البتة كل ما يريده من الأفعال المتقنة اللائقة المبنية على الحكم الرائقة التى من جملتها إثابة من آمن به وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم وعقاب من أشرك به وكذب برسوله عليه السلام ولما كان هذا من آثار نصرته تعالى له عليه السلام عقب بقوله عز وعلا :

﴿ من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة ﴾ تحقيقا لها وتقريرا لثبوتها على أبلغ وجه وآكده وقيل إيجاز بارع واختصار رائع والمعنى أنه تعالى ناصر لرسوله فى الدنيا والآخرة لا محالة من غير صارف يلوى ولا عاطف يثنيه فمن كان يغيظه ذلك من أعاديه وحساده ويظن أن لن يفعله تعالى بسبب مدافعته ببعض الأمور ومباشرة مايرده من المكايد فليبالغ فى استفراغ المجهود وليجاوز فى الجد كل حد معهود فقصارى أمره وعاقبة مكره أن يختنق حنقا مما يرى من ضلال مساعيه وعدم إنتاج مقدماته ومباديه ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾ فليمدد حبلا إلى سقف بيته ﴿ ثم ليقطع ﴾ أى ليختنق من قطع إذا اختنق لأنه يقطع نفسه بحبس مجاريه وقيل ليقطع الحبل بعد الاختناق على أن المراد به فرض القطع وتقديره كما أن المراد بالنظر فى قوله تعالى : ﴿ فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ﴾ تقدير النظر وتصويره أى فليصور فى نفسه النظر هل يذهبن كيده ذلك الذى هو أقصى ما انتهت إليه قدرته فى باب المضادة والمضارة ما يغيظه من النصرة كلا ويجوز أن يراد فلينظر الآن أنه إن فعل ذلك هل يذهب ما يغيظه ، وقيل المعنى فليمدد حبلا إلى السماء المظلة وليصعد عليه ثم ليقطع الوحى وقيل ليقطع المسافة حتى يبلغ عنانها فيجتهد فى دفع نصره ويأباه أن مساق النظم الكريم بيان أن الأمور المفروضة على تقدير وقوعها وتحققها بمعزل من إذهاب ما يغيظه وفى البين أن لا معنى لفرض وقوع الأمور الممتنعة وترتيب الأمر بالنظر عليه لاسيما قطع الوحى فإن فرض وقوعه مخل بالمرام قطعا وقيل كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ما وعد الله رسوله عليه الصلاة والسلام من النصر وآخرون من المشركين

يريدون اتباعه عليه السلام ويخشون أن لا يثبت أمره فنزلت وقد فسر النصر بالرزق فالمعنى أن الأرزاق بيد الله تعالى لا تنال إلا بمشيئته تعالى فلا بد للعبد من الرضا بقسمته فمن ظن أن الله تعالى غير رازقه ولم يصبر ولم يستسلم فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فإن ذلك لا يغلب القسمة ولا يرده مرزوقا ﴿ وكذلك ﴾ أى مثل ذلك الإنزال البديع المنطوى على الحكم البالغة ﴿ أنزلناه ﴾ أى القرآن الكريم كله وقوله تعالى : ﴿ آيات بينات ﴾ أى واضحات الدلالة على معانيها الرائقة حال من الضمير المنصوب مبينة لما أشير إليه بذلك ﴿ وأن الله يهدى ﴾ به ابتداء أو يثبت على الهدى أو يزيد فيه ﴿ من يريد ﴾ هدايته أو تثبيته أو زيادته فيها ومحل الجملة إما الجر على حذف الجار أو متعلق بمحذوف مؤخر أى ولأن الله يهدى من يريد أنزله كذلك أو الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى والأمر أن الله يهدى من يريد هدايته .

الله يفصل بين الناس فى الآخرة

﴿ إن الذين آمنوا ﴾ أى بما ذكر من الآيات البينات بهداية الله تعالى أو بكل ما يجب أن يؤمن به فيدخل فيه ما ذكر دخولا أوليا ﴿ والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس ﴾ قيل هم قوم يعبدون النار وقيل الشمس والقمر وقيل هم قوم من النصارى اعتزلوا عنهم ولبسوا المسوح وقيل أخذوا من دين النصارى شيئا ومن دين اليهود شيئا وهم القائلون بأن للعالم أصلين نورا وظلمة ﴿ والذين أشركوا ﴾ هم عبدة الأصنام وقوله تعالى ﴿ ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ فى حيز الرفع على أنه خبر لإن السابقة وتصدير طرفى الجملتين بحرف التحقيق لزيادة التقدير والتأكيد أى يقضى بين المؤمنين وبين الفرق الخمس المتفقة على ملة الكفر بإظهار المحق من المبطل وتوفية كل منهما حقه من الجزاء بإثابة الأول وعقاب الثانى بحسب[1] استحقاق أفراد كل منهما وقوله تعالى ﴿ إن الله

(١) فى ١٠ : حسب

على كل شيء شهيد ﴾ تعليل لما قبله من الفصل أى عالم بكل شيء من الأشياء ومراقب لأحواله ومن قضيته الإحاطة بتفاصيل ما صدر عن كل فرد من أفراد الفرق المذكورة وإجراء جزائه اللائق به عليه وقوله تعالى ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض ﴾ الخ بيان لما يوجب الفصل المذكور من أعمال الفرق المذكورة مع الإشارة إلى كيفيته وكونه بطريق التعذيب والإثابة والإكرام والإهانة إثر بيان ما يوجبه من كونه تعالى شهيدا على جميع الأشياء التى من جملتها أحوالهم وأفعالهم والمراد بالرؤية العلم عبر عنه بها إشعارا بظهور المعلوم والخطاب لكل أحد ممن يتأتى منه الرؤية بناء على أنه من الجلاء بحيث لا يخفى على أحد والمراد بالسجود هو الانقياد التام لتدبيره تعالى بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهه بأكمل أفعال المكلف فى باب الطاعة إيذانا بكونه فى أقصى مراتب التسخر والتذلل لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء سواء جعلت كلمة عامة لغيرهم أيضا وهو الأنسب بالمقام لإفادته شمول الحكم لكل ما فيهما بطريق القرار فيهما أو بطريق الجزئية منهما فيكون قوله تعالى :

﴿ والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ﴾ إفرادا لها بالذكر لشهرتها واستبعاد ذلك منها عادة أو جعلت خاصة بالعقلاء لعدم شمول سجود الطاعة لكلهم حسبما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ وكثير من الناس ﴾ فإنه مرتفع بفعل مضمر يدل عليه المذكور أى ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ومن قضيته انتفاء ذلك عن بعضهم وقيل هو مرفوع على الابتداء حذف خبره ثقة بدلالة خبر قسيمه عليه نحو حق له الثواب والأول هو الأولى لما فيه من الترغيب فى السجود والطاعة وقد جوز أن يكون من الناس خبرا له أى من الناس الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون والمتقون وأن يكون قوله تعالى ﴿ وكثير ﴾ معطوفا على كثير الأول للإيذان بغاية الكثرة ثم يخبر عنهم باستحقاق العذاب كأنه قيل وكثير وكثير من الناس ﴿ حق عليه العذاب ﴾

أى بكفره واستعصائه وقرىء حق بالضم وحقا أى حق عليه العذاب حقا ﴿ومن يهن الله﴾ بأن كتب عليه الشقاوة حسبما علمه من صرف اختياره إلى الشر ﴿ فما له من مكرم ﴾ يكرمه بالسعادة وقرىء بفتح الراء على أنه مصدر ميمى ﴿ إن الله يفعل ما يشاء ﴾ من الأشياء التى من جملتها الإكرام والإهانة . ﴿ هذان ﴾ تعيين لطرفى الخصام وإزاحة لما عسى يتبادر إلى الوهم من كونه بين كل واحدة من الفرق الست وبين البواقى وتحرير لمحله أى فريق المؤمنين وفريق الكفرة المنقسم إلى الفرق الخمس ﴿خصمان﴾ أى فريقان مختصمان وإنما قيل ﴿ اختصموا فى ربهم ﴾ حملا على المعنى أى اختصموا فى شأنه عز وجل وقيل فى دينه وقيل ذاته وصفاته والكل من شئونه تعالى فإن اعتقاد كل من الفريقين بحقية ما هو عليه وبطلان ما عليه صاحبه وبناء أقواله وأفعاله عليه خصومة للفريق الآخر وإن لم يجر بينهما التحاور والخصام وقيل تخاصمت اليهود والمؤمنون فقالت اليهود نحن أحق بالله وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المؤمنون نحن أحق بالله منكم آمنا بمحمد وبنبيكم وبما أنزل الله من كتاب وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم كفرتم به حسدا فنزلت ﴿ فالذين كفروا ﴾ تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى (يفصل بينهم يوم القيامة) ﴿قطعت لهم﴾ أى قدرت على مقادير جثثهم وقرىء بالتخفيف ﴿ ثياب من نار ﴾ أى نيران هائلة تحيط بهم إحاطة الثياب بلابسها ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ أى الماء الحار الذى انتهت حرارته قال ابن عباس رضى الله عنهما لو قطرت قطرة منها على جبال الدنيا لأذابتها والجملة مستأنفة أو خبر ثان للموصول أو حال من ضمير لهم ﴿يصهر به﴾ أى يذاب ﴿ما فى بطونهم﴾ من الأمعاء والأحشاء وقرىء يصهر بالتشديد ﴿والجلود﴾ عطف على ما وتأخيره عنه إما لمراعاة الفواصل أو للإشعار بغاية شدة الحرارة بإيهام أن تأثيرها فى الباطن أقدم من تأثيرها فى الظاهر مع أن ملابستها على العكس والجملة حال من الحميم .

﴿ولهم﴾ للكفرة أى لتعذيبهم وأجلهم ﴿مقامع من حديد﴾ جمع مقمعة وهى آلة للقمع ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها﴾ أى أشرفوا على الخروج من

النار ودنوا منه حسبما يروى أنها تضربهم بلهيبها فترفعهم حتى إذا كانوا فى أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا ﴿من غم﴾ أى من غم شديد من غمومها وهو بدل اشتمال من الهاء بإعادة الجار والرابط محذوف كما أشير اليه أو مفعول له للخروج ﴿أعيدوا فيها﴾ أى فى قعرها بأن ردوا من أعاليها إلى أسافلها من غير أن يخرجوا منها ﴿وذوقوا﴾ على تقدير قول معطوف على أعيدوا أى وقيل لهم ﴿عذاب الحريق﴾ أى الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار﴾ بيان لحسن حال المؤمنين إثر بيان سوء حال الكفرة وقد غير الأسلوب فيه بإسناد الإدخال إلى الله عز وجل وتصدير الجملة بحرف التحقيق إيذانا بكمال صيانة حالهم لحال الكفرة وإظهارا لمزيد العناية بأمر المؤمنين ودلالة على تحقيق مضمون الكلام ﴿يحلون فيها﴾ على البناء للمفعول بالتشديد من التحلية وقرىء بالتخفيف من الإحلاء بمعنى الإلباس أى يحليهم الملائكة بأمره تعالى وقرىء يحلون من حلية المرأة إذا لبست حليتها ومن فى قوله تعالى ﴿من أساور﴾ إما للتبعيض أى بعض أساور وهى جمع أسورة جمع سوار أو للبيان لما أن ذكر التحلية مما ينبىء عن الحلى المبهم وقيل زائدة وقيل نعت لمفعول محذوف ليحلون فإنه بمعنى يلبسون ﴿من ذهب﴾ بيان للأساور ﴿ولؤلؤا﴾ عطف على محل من أساور أو على المفعول المحذوف أو منصوب بفعل مضمر يدل عليه يحلون أى يؤتون وقرىء بالجر عطفا على أساور وقرىء لؤلؤا بقلب الهمزة الثانية واوا ولوليا بقلبها ياء بعد قلبهما واوا ولياليا بقلبهما ياء ﴿ولباسهم فيها حرير﴾ غير الأسلوب حيث لم يقل ويلبسون فيها حريرا لكن لا للدلالة على أن الحرير ثيابهم المعتادة أو لمجرد المحافظة على هيئة الفواصل بل للإيذان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غنى عن البيان إذ لا يمكن عراؤهم عنه وإنما المحتاج إلى البيان أن لباسهم ماذا بخلاف الأساور واللؤلؤ فإنها ليست من اللوازم الضرورية فجعل بيان تحليتهم بها مقصودا بالذات ولعل هذا هو الباعث إلى تقديم بيان التحلية على بيان حال اللباس .

﴿ وهدوا إلى الطيب من القول ﴾ وهو قولهم الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة الآية ﴿ وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ أى المحمود نفسه أو عاقبته وهو الجنة ووجه التأخير حينئذ أن ذكر الحمد يستدعى ذكر المحمود ﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله ﴾ ليس المراد به حالا ولا استقبالا وإنما هو استمرار الصد ولذلك حسن عطفه على الماضى كما فى قوله تعالى (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله) وقيل هو حال من فاعل كفروا أى وهم يصدون وخبر إن محذوف لدلالة آخر الآية الكريمة عليه فإن من ألحد فى الحرم حيث عوقب بالعذاب الأليم فلأن يعاقب من جمع إليه الكفر والصد عن سبيل الله بأشد من ذلك أحق وأولى ﴿ والمسجد الحرام ﴾ عطف على سبيل الله قيل المراد به مكة بدليل وصفه بقوله تعالى ﴿ الذى جعلناه للناس ﴾ أى كائنا من كان من غير فرق بين مكى وآفاقى ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ أى المقيم والطارىء وسواء أى مستويا مفعول ثان لجعلناه والعاكف مرتفع به واللام متعلق به ظرف له وفائدة وصف المسجد الحرام بذلك زيادة تشنيع الصادين عنه وقرىء سواء بالرفع على أنه خبر مقدم والعاكف مبتدأ والجملة مفعول ثان للجعل وقرىء العاكف بالجر على أنه بدل من الناس ﴿ ومن يرد فيه ﴾ مما ترك مفعوله ليتناول كل متناول كأنه قيل ومن يرد فيه مرادا ما ﴿ بإلحاد ﴾ بعدول عن القصد ﴿ بظلم ﴾ بغير حق وهما حالان مترادفان أو الثانى بدل من الأول بإعادة الجار أو صلة له أى ملحدا بسبب الظلم كالإشراك واقتراف الآثام ﴿ نذقه من عذاب أليم ﴾ جواب لمن

إبراهيم وتشريع الحج

﴿ وإذ بوأنا ﴾ يقال بوأه منزلا أى أنزله فيه ولما لزمه جعل الثانى مباءة للأول وقيل ﴿ لإبراهيم مكان البيت ﴾ وعليه مبنى قول ابن عباس رضى الله عنهما جعلناه أى اذكر وقت جعلنا مكان البيت مباءة له عليه السلام أى مرجعا يرجع إليه للعمارة والعبادة وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أن المقصود

تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر بيانه غير مرة وقيل اللام زائدة ومكان ظرف كما فى أصل الاستعمال أى أنزلناه فيه قيل رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فأعلم الله تعالى إبراهيم عليه السلام مكانه بريح أرسلها يقال لها الخجوج كنست ماحوله فبناه على أسه القديم روى أن الكعبة الكريمة بنيت خمس مرات إحداها بناء الملائكة وكانت من ياقوتة حمراء ثم رفعت أيام الطوفان والثانية بناء إبراهيم عليه السلام والثالثة بناء قريش فى الجاهلية وقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا البناء والرابعة بناء ابن الزبير والخامسة بناء الحجاج وقد أوردنا ما فى هذا الشأن من الأقاويل فى تفسير قوله تعالى (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت) وأن فى قوله تعالى ﴿أن تشرك بى شيئا﴾ مفسرة لبوأنا من حيث أنه متضمن لمعنى تعبدنا لأن التبوئة للعبادة أو مصدرية موصولة بالنهى وقد مر تحقيقه فى أوائل سورة هود أى فعلنا ذلك لئلا تشرك بى فى العبادة شيئاً ﴿ وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ أى وطهر بيتى من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلى فيه ولعل التعبير عن الصلاة بأركانها للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك فكيف وقد اجتمعت وقرىء يشرك بالياء .

﴿ وأذن فى الناس ﴾ أى ناد فيهم وقرىء آذن ﴿ بالحج ﴾ بدعوة الحج والأمر به روى أنه عليه السلام صعد أبا قبيس فقال يا أيها الناس حجوا بيت ربكم فأسمعه الله تعالى من فى أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق والمغرب ممن سبق فى علمه تعالى أن يحج وقيل الخطاب لرسول الله عليه وسلم أمر بذلك فى حجة الوداع ويأباه كون السورة مكية ﴿ يأتوك ﴾ جواب للأمر ﴿ رجالا ﴾ أى مشاة جمع راجل كقيام جمع قائم وقرىء بضم الراء وتخفيف الجيم وتشديده ورجالى كعجالى ﴿ وعلى كل ضامر ﴾ عطف على رجالا أى ركبانا على كل بعير مهزول أتعبه بعد الشقة فهزله أو زاد هزاله ﴿ يأتين ﴾ صفة لضامر محمولة على المعنى وقرىء يأتون على أنه صفة للرجال والركبان أو استئناف فيكون الضمير للناس ﴿ من كل فج ﴾ طريق واسع

﴿ عميق ﴾ بعيد وقرىء معيق يقال بئر بعيـــدة العمق وبعيدة المعق كالجذب والجبذ .

﴿ ليشهدوا ﴾ متعلق بيأتوك لا بأذن أى ليحضروا ﴿ منافع ﴾ ع الخطر كثيرة العدد أو نوعا من المنافع الدينية والدنيوية المختصة بهذه ال واللام فى قوله تعالى ﴿ لهم ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لمنافع أى منافع لهم ﴿ ويذكروا اسم الله ﴾ عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها وفى جعله للإتيان إيذان بأنه الغاية القصوى دون غيره وقيل هو كناية عن الذبح لا ينفك عنه ﴿ فى أيام معلومات ﴾ هى أيام النحر كما ينبى عنه قوله ﴿ على مارزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ فإن المراد بالذكر ما وقع عند الذبح هى عشر ذى الحجة قد علق الفعل بالمرزوق وبين بالبهيمة تحريضا على التق وتنبيها على الذكر ﴿ فكلوا منها ﴾ التفات إلى الخطاب والفاء فصيحة عا لمدخولها[1] على مقدر قد حذف للإشعار بأنه أمر محقق غير محتاج إلى التص به كما فى قوله تعالى(فانفجرت)أى فاذكروا اسم الله على ضحاياكم فكلو لحومها والأمر للإباحة وإزاحة ما كانت عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه للندب إلى مواساة الفقراء ومساواتهم ﴿ وأطعموا البائس ﴾ أى الذى أص بؤس وشدة ﴿ الفقير ﴾ المحتاج وهـــذا الأمر للوجوب وقد قيل : الأول أيضاً .

﴿ ثم ليقضوا تفثهم ﴾ أى ليؤدوا إزالة وسخهم أوليحكموها بقص الشا والأظفار ونتف الإبط والاستحداد عند الإحلال ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ ما ينذرون من البر فى حجهم وقيل مواجب[2] الحج وقرىء بفتح الواو وتش الفاء ﴿ وليطوفوا ﴾ طواف الركن الذى به يتم التحلل فإنه قرينة قضاء الت

(١) فى ١٠ : عطفت مدخولها

(٢) أى واجبات الحج من الدماء وغيرها .

وقيل طواف الوداع ﴿ بالبيت العتيق ﴾ أى القديم فإنه أول بيت وضع للناس أو المعتق من تسلط الجبابرة فكأين من جبار سار إليه ليهدمه فقصمه الله عز وجل وأما الحجاج الثقفى فإنما قصد إخراج ابن الزبير رضى الله عنهما منه لا التسلط عليه .

﴿ ذلك ﴾ أى الأمر ذلك وهذا وأمثاله يطلق للفصل بين الكلامين أو بين وجهى كلام واحد ﴿ ومن يعظم حرمات الله ﴾ أى أحكامه وسائر ما لا يحل هتكه بالعلم بوجوب مراعاتها والعمل بموجبه وقيل الحرم وما يتعلق بالحج من التكاليف وقيل الكعبة والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام ﴿ فهو خير له ﴾ أى فالتعظيم خير له ثوابا ﴿ عند ربه ﴾ أى فى الآخرة والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير من لتشريفه والإشعار بعلة الحكم ﴿ وأحلت لكم الأنعام ﴾ وهى الأزواج الثمانية على الإطلاق فقوله تعالى ﴿ إلا ما يتلى عليكم ﴾ أى إلا ما يتلى عليكم آية تحريمه استثناء متصل منها على أن ما عبارة عما حرم منها لعارض كالميتة وما أهل به لغير الله تعالى والجملة اعتراض جىء به تقريرا لما قبله من الأمر بالأكل والإطعام ودفعا لما عسى يتوهم أن الإحرام يحرمه كما يحرم الصيد وعدم الاكتفاء ببيان عدم كونها من ذلك القبيل بحمل الأنعام على ما ذكر من الضحايا والهدايا المعهودة خاصة لئلا يحتاج إلى الاستثناء المذكور إذ ليس فيها ما حرم لعارض قطعا لمراعاة حسن التخلص إلى ما بعده من قوله تعالى ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ فإنه مترتب على ما يفيده قوله تعالى ومن يعظم حرمات الله من وجوب مراعاتها والاجتناب عن هتكها ولما كان بيان حل الأنعام من دواعى التعاطى لا من مبادى الاجتناب عقب بما يوجب الاجتناب عنه من المحرمات ثم أمر بالاجتناب عما هو أقصى الحرمات كأنه قيل ومن يعظم حرمات الله فهو خير له والأنعام ليست من الحرمات فإنها محللة لكم إلا ما يتلى عليكم آية تحريمه فإنه مما يجب الاجتناب عنه فاجتنبوا ما هو معظم الأمور التى يجب الاجتناب عنها وقوله تعالى ﴿ واجتنبوا قول الزور ﴾ تعميم بعد تخصيص فإن عبادة

الأوثان رأس الزور كأنه لما حث على تعظيم الحرمات أتبع ذلك ردا لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب ونحوهما والافتراء على الله تعالى بأنه حكم بذلك وقيل شهادة الزور لما روى أنه عليه السلام قال عدلت شهادة الزور الإشراك بالله تعالى ثلاثا وتلا هذه الآية والزور من الزور وهو الانحراف كالإفك المأخوذ من الأفك الذى هو القلب والصرف فإن الكذب منحرف مصروف عن الواقع وقيل هو قول أهل الجاهلية فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك .

﴿ حنفاء لله ﴾ مائلين عن كل دين زائغ إلى الدين الحق مخلصين لله تعالى ﴿ غير مشركين به ﴾ أى شيئاً من الأشياء فيدخل فى ذلك الأوثان دخولا أوليا وهما حالان من واو فاجتنبوا ﴿ ومن يشرك بالله ﴾ جملة مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الاجتناب عن الإشراك وإظهار الاسم الجليل لإظهار كمال قبح الإشراك ﴿ فكأنما خر من السماء ﴾ لأنه (مسقط)[1] من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر ﴿ فتخطفه الطير ﴾ فإن الأهواء المردية توزع أفكاره وقرىء فتخطفه بفتح الخاء وتشديد الطاء وبكسر الخاء والطاء وبكسر التاء مع كسرهما وأصلهما تختطفه ﴿ أو تهوى به الريح ﴾ أى تسقطه وتقذفه ﴿ فى مكان سحيق ﴾ بعيد فإن الشيطان قد طوح به فى الضلالة وأو للتخيير كما فى أو كصيب أو للتنويع ويجوز أن يكون من باب التشبيه المركب فيكون المعنى ومن يشرك بالله فقد هلكت نفسه هلاكا شبيها بهلاك أحد الهالكين (هنا)[2] ﴿ ذلك ﴾ أى الأمر ذلك أو امتثلوا ذلك ﴿ ومن يعظم شعائر الله ﴾ أى الهدايا فإنها من معالم الحج وشعائره تعالى كما ينبىء عنه والبدن جعلناها لكم من شعائر الله وهو الأوفق لما بعده وتعظيمها اعتقاد أن التقرب بها من أجل القربات وأن يختارها حسانا سمانا غالية الأثمان روى أنه عليه الصلاة والسلام أهدى مائة بدنة فيها

---

(١) سقطت من ١٠ .
(٢) سقطت من بط .

جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب وأن عمر رضي الله عنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار ﴿ فإنها ﴾ أي فإن تعظيمها ﴿ من تقوى القلوب ﴾ أي من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات والعائد إلى من أو فإن تعظيمها ناشيء من تقوى القلوب وتخصيصها بالإضافة لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء ﴿ لكم فيها ﴾ أي في الهدايا ﴿ منافع ﴾ هي درها ونسلها وصوفها وظهرها ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ هو وقت نحرها والتصدق بلحمها والأكل منه ﴿ ثم محلها ﴾ أي وجوب نحرها أو وقت نحرها منتهية ﴿ إلى البيت العتيق ﴾ أي إلى ما يليه من الحرم ثم للتراخي الزماني أو الرتبي أي لكم فيها منافع دنيوية إلى وقت نحرها ثم منافع دينية أعظمها في النفع محلها أي وجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها إلى البيت العتيق أي منتهية إليه هذا وقد قيل المراد بالشعائر مناسك الحج ومعالمه والمعنى لكم فيها منافع بالأجر والثواب في قضاء المناسك وإقامة شعائر الحج إلى أجل مسمى هو انقضاء أيام الحج ثم محلها أي محل الناس من إحرامهم إلى البيت العتيق أي منته إليه بأن يطوفوا به طواف الزيارة يوم النحر بعد قضاء المناسك فإضافة المحل إليها لأدنى ملابسة .

﴿ ولكل أمة ﴾ أي لكل أهل دين ﴿ جعلنا منسكا ﴾ أي متعبدا وقربانا يتقربون به إلى الله عز وجل وقرىء بكسر السين أي موضع نسك وتقديم الجار والمجرور على الفعل للتخصيص أي لكل أمة من الأمم جعلنا منسكا لا لبعض دون بعض ﴿ ليذكروا اسم الله ﴾ خاصة دون غيره ويجعلوا نسيكتهم لوجهه الكريم علل الجعل به تنبيها على أن المقصود الأصلي من المناسك تذكر المعبود ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ عند ذبحها وفيه تنبيه على أن القربان يجب أن يكون من الأنعام والخطاب في قوله تعالى ﴿ فإلهكم إله واحد ﴾ للكل تغليبا والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن جعله تعالى لكل أمة من الأمم منسكا مما يدل على وحدانيته تعالى وإنما قيل إله واحد ولم يقل واحد لما أن المراد بيان أنه تعالى واحد في ذاته كما أنه واحد في إلهيته للكل والفاء في قوله

تعالى ﴿ فله أسلموا ﴾ لترتيب ما بعدها من الأمر بالإسلام على وحدانيته تعالى وتقديم الجار والمجرور على الأمر للقصر أى فإذا كان إلهكم إلها واحـــدا فأخلصوا له التقرب أو الذكر واجعلوه لوجهه خاصة ولا تشوبوه بالشرك ﴿ وبشر المخبتين ﴾ تجريد للخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أى المتواضعين أو المخلصين فإن الإخبات من الوظائف الخاصة بهم .

﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ منه تعالى لإشراق أشعة جلاله عليها ﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ من مشاق التكاليف ومؤنات النوائب ﴿ والمقيمى الصلوة ﴾ فى أوقاتها وقرىء بنصب الصلاة على تقدير النون وقرى والمقيمين الصلاة على الأصل ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ فى وجوه الخيرات ﴿ والبدن ﴾ بضم الباء وسكون الدال وقرىء بضمها وهما جمعا بدنة وقيل الأصل ضم الدال كخشب وخشبة والتسكين تخفيف منه وقرىء بتشديد النون على لفظ الوقف وإنما سميت بها الإبل لعظم بدنها مأخوذة من بدن بدانة وحيث شاركها البقرة فى الإجزاء عن سبعة بقوله صلى الله عليه وسلم البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة جعلا فى الشريعة جنسا واحدا وانتصابه بمضمر يفسره ﴿ جعلناها لكم ﴾ وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ والجملة خبره وقوله تعالى ﴿ من شعائر الله ﴾ أى من أعلام دينه التى شرعها الله تعالى مفعول ثان للجعل ولكم ظرف لغو متعلق به وقوله تعالى ﴿ لكم فيها خير ﴾ أى منافع دينية ودنيوية جملة مستأنفة مقررة لما قبلها .

﴿ فاذكروا اسم الله عليها ﴾ بأن تقولوا عند ذبحها الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر اللهم منك وإليك ﴿ صواف ﴾ أى قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن وقرىء صوافن من صفن الفرس إذا قام على ثلاث وعلى طرف سنبك الرابعة لأن البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث وقرىء صوافنا بإبدال التنوين من حرف الإطلاق عند الوقف وقرىء صوافى أى خوالص لوجه الله عز وجل وصواف على لغة من يسكن الياء على الإطلاق كما فى قوله :

* لعلى أرى باق على الحدثان *

﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ سقطت على الأرض وهو كناية عن الموت ﴿ فكلوا منها وأطعموا القانع ﴾ الراضى بما عنده من غير مسألة ويؤيده أنه قرىء القنع أو السائل من قنع إليه قنوعا إذا خضع له فى السؤال ﴿ والمعتر ﴾ أى المتعرض للسؤال وقرىء المعترى يقال عره وعراه واعتره واعتراه ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك التسخير البديع المفهوم من قوله تعالى ﴿ سخرناها لكم ﴾ مع كمال عظمها ونهاية قوتها فلا تستعصى عليكم حتى تأخذونها منقادة فتعلقونها وتحبسونها صافة قوائمها ثم تطعنون فى لباتها ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ لتشكروا إنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص .

﴿ لن ينال الله ﴾ أى لن يبلغ مرضاته ولن يقع منه موقع القبول ﴿ لحومها ﴾ المتصدق بها ﴿ ولا دماؤها ﴾ المهراقة بالنحر من حيث أنها لحوم ودماء ﴿ ولكن يناله التقوى منكم ﴾ ولكن يصيبه تقوى قلوبكم التى تدعوكم إلى الامتثال بأمره تعالى وتعظيمه والتقرب إليه والإخلاص له وقيل كان أهل الجاهلية يلطخون الكعبة بدماء قرابينهم فهم به المسلمون فنزلت ﴿ كذلك سخرها لكم ﴾ تكرير للتذكير والتعليل بقوله تعالى ﴿ لتكبروا الله ﴾ أى لتعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره فتوحدوه بالكبرياء وقيل هو التكبير عند الإحلال أو الذبح ﴿ على ما هداكم ﴾ أى أرشدكم إلى طريق تسخيرها وكيفية التقرب بها وما مصدرية أو موصولة أى على هدايته إياكم أو على ما هداكم إليه وعلى متعلقة بتكبروا لتضمنه معنى الشكر ﴿ وبشر المحسنين ﴾ أى المخلصين فى كل ما يأتون وما يذرون فى أمور دينهم ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾ كلام مستأنف مسوق لتوطين قلوب المؤمنين ببيان أن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم بحيث لا يقدرون على صدهم عن الحج ليتفرغوا إلى أداء مناسكه وتصديره بكلمة التحقيق لإبراز الاعتناء التام بمضمونه وصيغة المفاعلة إما للمبالغة أو للدلالة على تكرر الدفع فإنها قد تجرد عن وقوع الفعل المتكرر من الجانبين فيبقى تكرره كما فى الممارسة أى يبالغ فى دفع غائلة المشركين وضررهم الذى من جملته الصد

عن سبيل الله مبالغة من يغالب فيه أو يدفعها عنهم مرة بعد أخرى حسبما تجدد منهم القصد إلى الإضرار بالمسلمين كما فى قوله تعالى (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) وقرىء يدفع والمفعول محذوف وقوله تعالى ﴿ إن الله لا يحب كل خوان كفور﴾ تعليل لما فى ضمن الوعد الكريم من الوعيد للمشركين وإيذان بأن دفعهم بطريق القهر والخزى ونفى المحبة كناية عن البغض أى أن الله يبغض كل خوان فى أماناته تعالى وهى أوامره ونواهيه أو فى جميع الأمانات التى هى معظمها كفور لنعمنه وصيغة المبالغة فيهما لبيان أنهم كذلك لا لتقييد البغض بغاية الخيانة والكفر أو للمبالغة فى نفى المحبة على اعتبار النفى أولا وإيراد معنى المبالغة ثانيا .

﴿ أذن ﴾ أى رخص وقرىء على البناء للفاعل أى أذن الله تعالى ﴿ للذين يقاتلون﴾ أى يقاتلهم المشركون والمأذون فيه محذوف لدلالة المذكور عليه فإن مقاتلة المشركين إياهم دالة على مقاتلتهم إياهم دلالة نيرة وقرىء على صيغة المبنى للفاعل أى يريدون أن يقاتلوا المشركين فيما سيأتى ويحرصون عليه فدلالته على المحذوف أظهر ﴿بأنهم ظلموا﴾ أى بسبب أنهم ظلموا وهم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم كان المشركون يؤذونهم وكانوا يأتونه عليه السلام بين مضروب ومشجوج ويتظلمون إليه فيقول عليه السلام « اصبروا فإنى لم أومر بالقتال » حتى هاجروا فأنزلت وهى أول آية نزلت فى القتال بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين آية ﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ وعد لهم بالنصر وتأكيد لما مر من العدة الكريمة بالدفع وتصريح بأن المراد به ليس مجرد تخليصهم من أيدى المشركين بل تغليبهم وإظهارهم عليهم والإخبار بقدرته تعالى على نصرهم وارد على سنن الكبرياء وتأكيده بكلمة التحقيق واللام لمزيد تحقيق مضمونه وزيادة توطين نفوس المؤمنين وقوله تعالى :

﴿الذين أخرجوا من ديارهم﴾ فى حيز الجر على أنه صفة للموصول الأول أو بيان له أو بدل منه أو فى محل النصب على المدح أو فى محل الرفع بإضمار مبتدأ والجملة مرفوعة على المدح والمراد بديارهم مكة المعظمة ﴿بغير حق﴾ متعلق

بأخرجوا أى أخرجوا بغير ما يوجب إخراجهم وقوله تعالى ﴿إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ بدل من حق أى بغير موجب سوى التوحيد الذى ينبغى أن يكون موجبا للإقرار والتمكين دون الإخراج والتسيير لكن لا على الظاهر بل على طريقة قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وقيل الاستثناء منقطع ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾ بتسليط المؤمنين على الكافرين فى كل عصر وزمان وقرىء دفاع ﴿لهدمت ﴾ لخربت باستيلاء المشركين على أهل الملل وقرىء هدمت بالتخفيف ﴿ صوامع ﴾ للرهابنة ﴿ وبيع ﴾ للنصارى ﴿ وصلوات ﴾ أى وكنائس لليهود سميت بها لأنها يصلى فيها وقيل أصلها صلوتا بالعبرية فعربت ﴿ ومساجد ﴾ للمسلمين ﴿ يذكر فيها اسم الله كثيرا ﴾ أى ذكرا كثيرا أو وقتا صفة مادحة للمساجد خصت بها دلالة على فضلها وفضل أهلها وقيل صفة للأربع وليس كذلك فإن بيان ذكر الله عز وجل فى الصوامع والبيع والكنائس بعد انتساخ شرعيتها مما لا يقتضيه المقام ولا يرتضيه الأفهام ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ أى وبالله لينصرن الله من ينصر أولياءه أو من ينصر دينه ولقد أنجز الله عز سلطانه وعده حيث سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿ إن الله لقوى ﴾ على كل ما يريده من مراداته التى من جملتها نصرهم ﴿ عزيز ﴾ لا يمانعه شىء ولا يدافعه .

﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ وصف من الله عز وجل للذين أخرجوا من ديارهم بما سيكون منهم من حسن السيرة عند تمكينه تعالى إياهم فى الأرض وإعطائه إياهم زمام الأحكام منبىء عن عدة كريمة على أبلغ وجه وألطفه وعن عثمان رضى الله عنه هذا والله ثناء قبل بلاء يريد أنه تعالى أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا قالوا وفيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين

لأنه تعالى لم يعط التمكين ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة غيرهم من المهاجرين ولاحظ فى ذلك للأنصار والطلقاء وعن الحسن رحمه الله هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل الذين بدل من قوله من ينصره ﴿ ولله ﴾ خاصة ﴿ عاقبة الأمور ﴾ فإن مرجعها إلى حكمه وتقديره فقط وفيه تأكيد للوعد بإظهار أوليائه وإعلاء كلمته .

تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم متضمنة للوعد الكريم بإهلاك من يعاديه من الكفرة وتعيين لكيفية نصره تعالى له الموعود بقوله تعالى ولينصرن الله من ينصره وبيان لرجوع عاقبة الأمور إليه تعالى وصيغة المضارع فى الشرط مع تحقق التكذيب لما أن المقصود تسليته عليه السلام عما يترتب على التكذيب من الحزن المتوقع أى وإن تحزن على تكذيبهم إياك فاعلم أنك لست بأوحدى فى ذلك فقد كذبت قبل تكذيب قومك إياك قوم نوح ﴿ وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين ﴾ أى رسلهم ممن ذكر ومن لم يذكر وإنما حذف لكمال ظهور المراد أو لأن المراد نفس الفعل أى فعلت التكذيب قوم نوح إلى آخره ﴿ وكذب موسى ﴾ غير النظم الكريم بذكر المفعول وبناء الفعل له لا لأن قومه بنو إسرائيل وهم لم يكذبوه وإنما كذبه القبط لما أن ذلك إنما يقتضى عدم ذكرهم بعنوان كونهم قوم موسى لا بعنوان آخر على أن بنى إسرائيل أيضاً قد كذبوه مرة بعد أخرى حسبما نطق به[1] قوله تعالى (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) ونحو ذلك من الآيات الكريمة بل للإيذان بأن تكذيبهم له كان فى غاية الشناعة لكون آياته فى كمال الوضوح وقوله تعالى ﴿ فأمليت للكافرين ﴾ أى أمهلتهم حتى انصرمت حبال آجالهم والفاء لترتيب إمهال كل فريق من فرق

---

(١) فى الأصل : ينطق به

المكذبين على تكذيب ذلك الفريق لا لترتيب إمهال الكل على تكذيب الكل ووضع الظاهر موضع الضمير العائد إلى المكذبين لذمهم بالكفر والتصريح بمكذبي موسى عليه السلام حيث لم يذكروا فيما قبل صريحا ﴿ ثم أخذتهم ﴾ أي أخذت كل فريق من فرق المكذبين بعد انقضاء مدة إملائه وإمهاله ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي إنكاري عليهم بالإهلاك أي فكان ذلك في غاية ما يكون من الهول والفظاعة وقوله تعالى :

﴿ فكأين من قرية ﴾ منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى ﴿ أهلكناها ﴾ أي فأهلكنا كثيرا من القرى بإهلاك أهلها والجملة بدل من قوله تعالى (فكيف كان نكير) أو مرفوع على الابتداء وأهلكنا خبره أي فكثير من القرى أهلكناها وقرىء أهلكتها على وفق قوله تعالى (فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير) ﴿ وهي ظالمة ﴾ جملة حالية من مفعول أهلكنا وقوله تعالى ﴿ فهي خاوية ﴾ عطف على أهلكناها لا على وهي ظالمة لأنها حال والإهلاك ليس في حال خوائها فعلى الأول لا محل له من الإعراب كالمعطوف عليه وعلى الثاني في محل الرفع لعطفه على الخبر والخواء إما بمعنى السقوط من خوى النجم إذ سقط فالمعنى فهي ساقطة حيطانها ﴿ على عروشها ﴾ أي سقوفها بأن تعطل بنيانها فخرت سقوفها ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف وإسناد السقوط على العروش إليها لتنزيل الحيطان منزلة كل البنيان لكونها عمدة فيه وإما بمعنى الخلو من خوى المنزل إذا خلا من أهله فالمعنى فهي خالية مع بقاء عروشها وسلامتها فتكون على بمعنى مع ويجوز أن يكون على عروشها خبرا بعد خبر أي فهي على عروشها أي قائمة مشرفة على عروشها على معنى أن السقوف سقطت إلى الأرض وبقيت الحيطان قائمة فهي مشرفة على السقوف الساقطة وإسناد الإشراف إلى الكل مع كونه حاو الحيطان لما مر آنفا ﴿ وبئر معطلة ﴾ عطف على قرية أي وكم بئر عامرة في البوادي تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها وقرىء بالتخفيف من أعطله بمعنى عطله ﴿ وقصر مشيد ﴾ مرفوع البنيان أو مجصص أخليناه عن ساكنيه وهذا يؤيد كون معنى خاوية على عروشها خالية مع بقاء

عروشها وقيل المراد بالبئر بئر بسفح جبل بحضرموت وبالقصر قصر مشرف على قلته كانا لقوم حنظلة بن صفوان من بقايا قوم صالح فلما قتلوه أهلكهم الله تعالى وعطلهما .

﴿ أفلم يسيروا فى الأرض ﴾ حث لهم أن يسافروا ليروا مصارع المهلكين فيعتبروا وهم وإن كانوا قد سافروا فيها ولكنهم حيث لم يسافروا للاعتبار جعلوا غير مسافرين فحثوا على ذلك والفاء لعطف ما بعدها على مقدر يقتضيه أى أغفلوا فلم يسيروا فيها ﴿ فتكون لهم ﴾ بسبب ما شاهدوه من مواد الاعتبار ومظان الاستبصار ﴿ قلوب يعقلون بها ﴾ يجب أن يعقل من التوحيد ﴿ أو آذان يسمعون بها ﴾ ما يجب أن يسمع من الوحى أو من أخبار الأمم المهلكة ممن يجاورهم من الناس فإنهم أعرف منهم بحالهم ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ﴾ الضمير للقصة أو مبهم يفسره الإبصار وفى تعمى ضمير راجع إليه وقد أقيم الظاهر مقامه ﴿ ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ أى ليس الخلل فى مشاعرهم وإنما هو فى عقولهم باتباع الهوى والانهماك فى الغفلة وذكر الصدور للتأكيد ونفى توهم التجوز وفضل التنبيه على أن العمى الحقيقى ليس المتعارف الذى يختص بالبصر قيل لما نزل قوله تعالى (ومن كان فى هذه أعمى) قال ابن أم مكتوم يا رسول الله أنا فى الدنيا أعمى أفأكون فى الآخرة أعمى ؟

﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ كانوا منكرين لمجىء العذاب المتوعد به أشد الإنكار وإنما كانوا يستعجلون به استهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم وتعجيزا له على زعمهم فحكى عنهم ذلك بطريق التخطئة والاستنكار فقوله تعالى ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ إما جملة حالية جىء بها البيان بطلان إنكارهم لمجيئه فى ضمن استعجالهم به وإظهار خطئهم فيه كأنه قيل كيف ينكرون مجىء العذاب الموعود والحال أنه تعالى لا يخلف وعده أبدا وقد سبق الوعد فلا بد من مجيئه حتما أو اعتراضية مبينة لما ذكر وقوله تعالى : ﴿ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ جملة مستأنفة إن كانت الأولى حالية ومعطوفة عليها إن كانت اعتراضية سيقت لبيان خطئهم فى الاستعجال المذكور ببيان كمال سعة ساحة

حلمه تعالى ووقاره وإظهار غاية ضيق عطنهم المستتبع لكون المدة القصيرة عنده تعالى مددا طوالا عندهم حسبما ينطق به قوله تعالى (إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) ولذلك يرون مجيئه بعيدا ويتخذونه ذريعة إلى إنكاره ويجترئون على الاستعجال به ولا يدرون أن معيار تقدير الأمور كلها وقوعا وأخبارا ماعنده تعالى من المقدار وقراءة يعدون على صيغة الغيبة أى يعده المستعجلون أوفق لهذا المعنى وقد جعل الخطاب فى القراءة المشهورة لهم أيضا بطريق الالتفات لكن الظاهر أنه للرسول عليه السلام ومن معه من المؤمنين وقيل المراد بوعده تعالى ما جعل لهلاك كل أمة من موعد معين وأجل مسمى كما فى قوله تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب) فتكون الجملة الأولى حالية كانت أو اعتراضية مبينة لبطلان الاستعجال به ببيان استحالة مجيئه قبل وقته الموعود والجملة الأخيرة بيانا لبطلانه ببيان ابتناء على استطالة ماهو قصير عنده تعالى على الوجه الذى مر بيانه فلا يكون فى النظم الكريم حينئذ تعرض لإنكارهم الذى دسوه تحت الاستعجال بل يكون الجواب مبنيا على ظاهر مقالهم ويكتفى فى رد إنكارهم ببيان عاقبة من قبلهم من أمثالهم هذا وحمل المستعجل به على عذاب الآخرة وجعل اليوم عبارة عن يوم العذاب المستطال لشدته أوعن أيام الآخرة الطويلة حقيقة أو المستطالة لشدة عذابها مما لا يساعده سباق النظم الجليل ولا سياقه فإن كلا منهما ناطق بأن المراد هو العذاب الدنيوى وأن الزمان الممتد هو الذى مر عليهم قبل حلوله بطريق الإملال لا الزمان المقارن له ألا يرى إلى قوله تعالى :

﴿ وكأين من قرية ﴾ الخ فإنه كما سلف من قوله تعالى (فأمليت للكافرين ثم أخذتهم) صريح فى أن المراد هو الأخذ العاجل الشديد بعد الإملاء المديد أى وكم من أهل قرية فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فى الإعراب ورجع الضمائر والأحكام مبالغة فى التعميم والتهويل ﴿ أمليت لها ﴾ كما أمليت لهؤلاء حتى أنكروا مجىء ما وعدوا من العذاب واستعجلوا به استهزاء برسلهم

كما فعل هؤلاء ﴿ وهى ظالمة ﴾ جملة حالية مفيدة لكمال حلمه تعالى ومشعرة بطريق التعريض بظلم المستعجلين أى أمليت لها والحال أنها ظالمة مستوجبة لتعجيل العقوبة كدأب هؤلاء ﴿ ثم أخذتها ﴾ بالعذاب والنكال بعد طول الإملاء والإمهال وقوله تعالى ﴿ وإلى المصير ﴾ اعتراض تذييلى[1] مقرر لما قبله ومصرح بما أفاده ذلك بطريق التعريض من أن مال أمر المستعجلين أيضاً ما ذكر من الأخذ الوبيل أى إلى حكمى مرجع الكل جميعا لا إلى أحد غيرى لا استقلالا ولا شركة فأفعل بما يليق باعمالهم ﴿ قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ﴾ أنذركم إنذارا بينا بما أوحى من أنباء الأمم المهلكة من غير أن يكون لى دخل فى إتيان ما توعدونه من العذاب حتى تستعجلونى به والاقتصار على الإنذار مع بيان حال الفريقين بعده لما أشير إليه من أن مساق الحديث للمشركين وعقابهم وإنما ذكر المؤمنون وثوابهم زيادة فى غيظهم ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ﴾ لما قدر منهم من الذنوب ﴿ ورزق كريم ﴾ هى الجنة والكريم من كل نوع ما يجمع فضائله ويحوز كمالاته ﴿ والذين سعوا فى آياتنا معاجزين ﴾ أى سابقين أومسابقين فى زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم وأصله من عاجزه وعجزه فأعجزه إذا سابقه فسبقه لأن كلا من المتسابقين يريد إعجاز الآخر عن اللحاق به وقرىء معجزين أى مثبطين الناس عن الإيمان على أنه حال مقدرة ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من السعى والمعاجزة ﴿ أصحاب الجحيم ﴾ أى ملازموا النار الموقدة وقيل هو اسم دركة من دركاتها .

إلقاء الشيطان فى أمنيات الرسل

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ﴾ الرسول من بعثه الله تعالى بشريعة جديدة يدعو الناس إليها والنبى يعمه ومن بعثه لتقرير شريعة سابقة

(١) فى ١١ تقرير تذييلى .

كأنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ولذلك شبه عليه السلام علماء أمته بهم فالنبي أعم من الرسول ويدل عليه أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن الأنبياء فقال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا قيل فكم الرسول منهم فقال ثلثمائة وثلاثة عشر جما غفيرا وقيل الرسول من جمع إلى المعجزة كتابا منزلا عليه والنبي غير الرسول من لا كتاب له وقيل الرسول من يأتيه الملك بالوحي والنبي يقال له ولمن يوحى إليه فى المنام ﴿ إلا إذا تمنى ﴾ أى هيأ فى نفسه ما يهواه ﴿ ألقى الشيطان فى أمنيته ﴾ فى تشهيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه السلام وإنه ليغان على قلبي فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة ﴿ فينسخ الله ما يلقى الشيطان ﴾ فيبطله ويذهب به بعصمته عن الركون إليه وإرشاده إلى ما يزيحه ﴿ ثم يحكم الله آياته ﴾ أى يثبت آياته الداعية إلى الاستغراق فى شئون الحق وصيغة المضارع فى الفعلين للدلالة على الاستمرار التجددى وإظهار الجلالة فى موقع الإضمار لزيادة التقرير والإيذان بأن الألوهية من موجبات أحكام آياته الباهرة ﴿ والله عليم ﴾ مبالغ فى العلم بكل ما من شأنه أن يعلم ومن جملته ما صدر عن العباد من قول وفعل عمدا أو خطأ ﴿ حكيم ﴾ فى كل ما يفعل والإظهار ههنا أيضا لما ذكر مع ما فيه من تأكيد استقلال الاعتراض التذييلى قيل حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت وقيل تمنى لحرصه على إيمان قومه أن ينزل عليه ما يقربهم إليه واستمر به ذلك حتى كان فى ناديهم فنزلت عليه سورة النجم فأخذ يقرؤها فلما بلغ ومناة الثالثة الأخرى وسوس إليه الشيطان حتى سبق لسانه سهوا إلى أن قال تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى ففرح به المشركون حتى شايعوه بالسجود لما سجد فى آخرها بحيث لم يبق فى المسجد مؤمن ولا مشرك إلا سجد ثم نبهه جبريل عليه السلام فاغتم به فعزاه الله عز وجل بهذه الآية وهو مردود عند المحققين ولئن صح فابتلاء يتميز به الثابت على الإيمان عن المتزلزل فيه وقيل تمنى بمعنى قرأ كقوله :

تمنى كتاب الله أول ليلة تمنى داود الزبور على رسل

وأمنيته قراءته وإلقاء الشيطان فيها أن يتكلم بذلك رافعا صوته بحيث

ظن السامعون أنه من قراءة النبي عليه السلام وقد رد بأنه أيضاً يخل بالوثوق بالقرآن ولا يندفع بقوله تعالى (فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته) لأنه أيضاً يحتمله وفى الآية دلالة على جواز السهو من الأنبياء عليهم السلام وتطرق الوسوسة اليهم ﴿ ليجعل ما يلقى الشيطان ﴾ علة لما ينبىء عنه ما ذكر من إلقاء الشيطان من تمكينه تعالى إياه من ذلك فى حق النبى عليه السلام خاصة كما يعرب عنه سياق النظم الكريم لما أن تمكينه تعالى إياه من الإلقاء فى حق سائر الأنبياء عليهم السلام لا يمكن تعليله بما سيأتى وفيه دلالة على أن ما يلقيه أمر ظاهر يعرفه المحق والمبطل ﴿ فتنة للذين فى قلوبهم مرض ﴾ أى شك ونفاق كما فى قوله تعالى (فى قلوبهم مرض) الآية ﴿ والقاسية قلوبهم ﴾ أى المشركين ﴿ وإن الظالمين ﴾ أى الفريقين المذكورين فوضع الظاهر موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالظلم مع ما وصفوا به من المرض والقساوة ﴿ لفى شقاق بعيد ﴾ أى عداوة شديدة ومخالفة تامة ووصف الشقاق بالبعد مع أن الموصوف به حقيقة هو معروضه للمبالغة والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله .

﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه ﴾ أى القرآن ﴿ الحق من ربك ﴾ أى هو الحق النازل من عنده تعالى وقيل ليعلموا أن تمكين الشيطان من الإلقاء هو الحق المتضمن للحكمة البالغة والغاية الجميلة لأنه مما جرت به عادته فى جنس الإنس من لدن آدم عليه السلام فحينئذ لا حاجة إلى تخصيص التمكين فيما سبق بالإلقاء فى حقه عليه السلام لكن يأباه قوله تعالى ﴿ فيؤمنوا به ﴾ أى بالقرآن أى يثبتوا على الإيمان به أو يزدادوا إيمانا برد ما يلقى الشيطان فتخبت له قلوبهم بالانقياد والخشية والإذعان لما فيه من الأوامر والنواهى ورجع الضمير لاسيما الثانى إلى تمكين الشيطان من الإلقاء مما لا وجه له ﴿ وإن الله لهادى الذين آمنوا ﴾ أى فى الأمور الدينية خصوصا فى المداحض والمشكلات التى من جملتها ما ذكر ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ هو النظر الصحيح الموصل[1] إلى الحق الصريح والجملة اعتراض مقرر لما قبله .

(١) فى ب ه : الذى يوصل

﴿ ولا يزال الذين كفروا فى مرية ﴾ أى فى شك وجدال ﴿ منه ﴾ أى من القرآن وقيل من الرسول صلى الله عليه وسلم والأول هو الأظهر بشهادة ما سبق من قول تعالى(ثم يحكم الله آياته)وقوله تعالى(إنه الحق من ربك فيؤمنوا به) وما لحق من قوله تعالي (وكذبوا بآياتنا) وأما تجويز كون الضمير لما ألقى الشيطان فى أمنيته فما لا مساغ له لأن ذلك ليس من هناتهم التى تستمر إلى الأمد المذكور بل إنما هى مريتهم فى شأن القرآن ولا يجدى حمل من على السببية دون الابتدائية لما أن مريتهم المستمرة كما انها ليست مبتدأة من ذلك ليست ناشئة منه ضرورة أنها مستمرة منهم من لدن نزول القرآن الكريم .

﴿ حتى تأتيهم السّاعة ﴾ أى القيامة نفسها كما يؤذن قوله تعالى ﴿ بغتة ﴾ أى فجأة فإنها الموصوفة بالإتيان كذلك لا أشراطها وقيل الموت ﴿ أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ أى يوم لا يوم بعده كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام فما لا يوم بعده يكون عقيما والمراد به الساعة أيضا كأنه قيل أو يأتيهم عذابها فوضع ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل ولا سبيل إلى حمل الساعة على أشراطها لما عرفته وأما ما قيل من أن المراد يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر سمى به لأن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن أو لأن المقاتلين أبناء الحرب فإذا قتلوا صارت عقيما أى ثكلى فوصف اليوم بوصفها اتساعا أو لأنه لا خير لهم فيه ومنه الريح العقيم لما لم ينشىء مطرا ولم يلقح شجرا أو لأنه لا مثل له لقتال الملائكة عليهم السلام فيه فما لا يساعده سياق النظم الكريم أصلا كيف لا وأن تخصيص الملك والتصرف الكلى فيه بالله عز وجل ثم بيان ما يقع فيه من حكمه تعالى بين الفريقين بالثواب والعذاب الأخرويين يقضى بأن المراد به يوم القيامة قضاء بينا لا ريب فيه .

﴿ الملك ﴾ أى السلطان القاهر والاستيلاء التام والتصرف على الإطلاق ﴿ يومئذ لله ﴾ وحده بلا شريك أصلا بحيث لا يكون فيه لأحد تصرف من التصرفات فى أمر من الأمور لا حقيقة ولا مجازا ولا صورة ولا معنى كما

فى الدنيا فإن للبعض فيها تصرفا صوريا فى الجملة وليس التنوين نائبا عما تدل عليه الغاية من زوال مريتهم كما قيل ولا عما يستلزمه ذلك من إيمانهم كما قيل لما أن القيد المعتبر مع اليوم حيث وسط بين طرفى الجملة يجب أن يكون مدارا لحكمها أعنى كون الملك لله عز وجل وما يتفرع عليه من الإثابة والتعذيب ولا ريب فى أن إيمانهم أو زوال مريتهم ليس مما له تعلق بما ذكر فضلا عن المدارية له فلا سبيل إلى اعتبار شىء منهما مع اليوم قطعا وإنما الذى يدور عليه ما ذكر إتيان الساعة التى هى منتهى تصرفات الخلق ومبدأ ظهور أحكام الملك الحق جل جلاله فإذن هو نائب عن نفس الجملة الواقعة غاية لمريتهم فالمعنى الملك يوم إذ تأتيهم الساعة أو عذابها لله تعالى وقوله تعالى ﴿ يحكم بينهم ﴾ جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ من الأخبار بكون الملك يومئذ لله كأنه قيل فماذا يصنع بهم حينئذ فقيل يحكم بين فريق المؤمنين به والمماترين فيه بالمجازاة وقوله تعالى ﴿ فالذين آمنوا ﴾ الخ تفسير للحكم المذكور وتفصيل له أى فالذين آمنوا بالقرآن الكريم ولم يماروا فيه ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ امتثالا بما أمروا فى تضاعيفه ﴿ فى جنات النعيم ﴾ أى مستقرون فيها ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ أى أصروا على ذلك واستمروا ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الكفر والتكذيب وما فيه من معنى البعد للإيذان بعد منزلتهم فى الشر والفساد أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الكفر والتكذيب وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ لهم عذاب ﴾ جملة اسمية من مبتدأ وخبر مقدم عليه وقعت خبرا لأولئك أو لهم خبر لأولئك وعذاب مرتفع على الفاعلية بالاستقرار فى الجار والمجرور لاعتماده على المبتدأ وأولئك مع خبره على الوجهين خبر للموصول وتصديره بالفاء للدلالة على أن تعذيب الكفار بسبب أعمالهم السيئة كما أن تجريد خبر الموصول الأول عنها للإيذان بأن إثابة المؤمنين بطريق التفضل لا لإيجاب الأعمال الصالحة إياها وقوله تعالى ﴿ مهين ﴾ صفة لعذاب مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة وفيه من المبالغة من وجوه شتى ما لا يخفى ﴿ والذين هاجروا فى سبيل الله ﴾ أى فى الجهاد حسبما يلوح به قوله تعالى

﴿ ثم قتلوا أو ماتوا ﴾ أى فى تضاعيف المهاجرة ومحل الموصول الرفع على الابتداء وقوله تعالى ﴿ ليرزقنهم ﴾ جواب لقسم محذوف والجملة خبره ومن منع وقوع الجملة القسمية وجوابها خبرا للمبتدأ يضمر قولا هو الخبر والجملة محكية وقوله تعالى ﴿ رزقا حسنا ﴾ إما مفعول ثان على أنه من باب الرعى والذبح أى مرزوقا حسنا أو مصدر مؤكد والمراد به ما لا ينقطع أبدا من نعيم الجنة وإنما سوى بينهما فى الوعد لاستوائهما فى القصد وأصل العمل على أن مراتب الحسن متفاوتة فيجوز تفاوت حال المرزوقين حسب تفاوت الأرزاق الحسنة وروى أن بعض أصحاب النبى عليه السلام قالوا يانبى الله هؤلاء الذين قتلوا فى سبيل الله قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا معك فنزلت وقيل نزلت فى طوائف خرجوا من مكة إلى المدينة للهجرة فتبعهم المشركون فقاتلوهم ﴿ وإن الله لهو خير الرازقين ﴾ فإنه يرزق بغير حساب مع أن ما يرزقه لا يقدر عليه أحد غيره والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله وقوله تعالى ﴿ ليدخلنهم مدخلا يرضونه ﴾ بدل من قوله تعالى (ليرزقنهم الله) أو استئناف مقرر لمضمونه ومدخلا إما اسم مكان أريد به الجنة فهو مفعول ثان للإدخال أو مصدر ميمى أكد به فعله قال ابن عباس رضى الله عنهما إنما قيل يرضونه لما أنهم فيها يرون ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيرضونه ﴿ وإن الله لعليم ﴾ بأحوالهم وأحوال معاديهم ﴿ حليم ﴾ لا يعاجلهم بالعقوبة .

﴿ ذلك ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى الأمر ذلك والجملة لتقرير ما قبله والتنبيه على أن ما بعده كلام مستأنف ﴿ ومن عاقب بمثل ما عوقب به ﴾ أى لم يزد فى الاقتصاص وإنما سمى الابتداء بالعقاب الذى هو جزاء الجناية للمشاكلة أو لكونه سببا له ﴿ ثم بغى عليه ﴾ بالمعاودة إلى العقوبة ﴿ لينصرن الله ﴾ على من بغى عليه لا محالة ﴿ إن الله لعفو غفور ﴾ أى مبالغ فى العفو والغفران فيعفو عن المنتصر ويغفر له ما صدر عنه من ترجيح الانتقام على العفو والصبر المندوب إليهما بقوله تعالى (ولمن صبر وغفر إن ذلك) أى ما ذكر من الصبر والمغفرة (لمن

عزم الأمور) فإن فيه حثا بليغا على العفو والمغفرة فإنه تعالى مع كمال قدرته لما كان يعفو ويغفر فغيره أولى بذلك وتنبيها على أنه تعالى قادر على العقوبة إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى النصر وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبته ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى ﴿ بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾ أى بسبب أنه تعالى من شأنه وسنته تغليب بعض مخلوقاته على بعض والمداولة بين الأشياء المتضادة وعبر عن ذلك بإدخال أحد الملوين فى الآخر بأن يزيد فيه ما ينقص عن الآخر أو بتحصيل أحدهما فى مكان الآخر أو بتحصيل أحدهما فى مكان الآخر لكونه أظهر المواد وأوضحها ﴿ وإن الله سميع ﴾ بكل المسموعات التى من جملتها قول المعاقب ﴿ بصير ﴾ بجميع المبصرات ومن جملتها أفعاله ﴿ذلك﴾ أى الاتصاف بما ذكر من كمال القدرة والعلم وما فيه من معنى البعد لما مر آنفا وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ بأن الله هو الحق ﴾ الواجب لذاته الثابت فى نفسه وصفاته وأفعاله وحده فإن وجوب وجوده ووحدته يقتضيان كونه مبدأ لكل ما يوجد من الموجودات عالما بكل المعلومات أو الثابت إلهية فلا يصلح لها إلا من كان عالما قادرا ﴿ وأن ما يدعون من دونه ﴾ إلها وقرىء على البناء للمفعول على أن الواو لما فاته عبارة عن الآلهة وقرىء بالتاء على خطاب المشركين ﴿هو الباطل﴾ أى المعدوم فى حد ذاته أو الباطل ألوهيته ﴿ وأن الله هو العلى ﴾ على جميع الأشياء ﴿ الكبير ﴾ عن أن يكون له شريك لا شىء أعلى منه شأنا وأكبر سلطانا ..

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء﴾ استفهام تقريرى كما ينصح عنه الرفع فى قوله تعالى ﴿ فتصبح الأرض مخضرة ﴾ بالعطف على أنزل وإيثار صيغة الاستقبال للإشعار بتجدد أثر الإنزال واستمراره أو لاستحضار صورة الاخضرار ﴿إن الله لطيف﴾ يصل لطفه أو علمه إلى كل ما جل ودق ﴿خبير﴾ بما يليق من الدابين الحسنة ظاهرا وباطنا ﴿ له ما فى السموات والأرض ﴾ خلقا وملكا وتصرفا ﴿ وإن الله لهو الغنى ﴾ عن كل شىء ﴿الحميد﴾ المستوجب

للحمد بصفاته وأفعاله ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض ﴾ أى جعل ما فيها من الأشياء مذللة لكم معدة لمنافعكم تتصرفون فيها كيف شئتم فلا أصلب من الحجر ولا أشد من الحديد ولا أهيب من النار وهى مسخرة لكم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم لتعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر ﴿ والفلك ﴾ عطف على ما أو على اسم أن وقرىء بالرفع على الابتداء ﴿ تجرى فى البحر بأمره ﴾ حال من الفلك على الأول وخبر على الأخيرين ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض ﴾ أى من أن تقع أو كراهة أن تقع بأن خلقها على هيئة متداعية إلى الاستمساك ﴿ إلا بإذنه ﴾ أى بمشيئته وذلك يوم القيامة وفيه رد لاستمساكها بذاتها فإنها مساوية فى الجسمية لسائر الأجسام القابلة للميل الهابط فتقبله كقبول غيرها ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ حيث هيأ لهم أسباب معاشهم وفتح عليهم أبواب المنافع وأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية .

﴿ وهو الذى أحياكم ﴾ بعد أن كنتم جمادا عناصر ونطفا حسبما فصل فى مطالع السورة الكريمة ﴿ ثم يميتكم ﴾ عند مجىء آجالكم ﴿ ثم يحييكم ﴾ عند البعث ﴿ إن الإنسان لكفور ﴾ أى جحود للنعم مع ظهورها وهذا وصف للجنس بوصف بعض أفراده ﴿ لكل أمة ﴾ كلام مستأنف جىء به لزجر معاصريه عليه السلام من أهل الأديان السماوية عن منازعته عليه السلام ببيان حال ما تمسكوا به من الشرائع وإظهار خطئهم فى النظر أى لكل أمة معينة من الأمم الخالية والباقية ﴿ جعلنا ﴾ أى وضعنا وعينا ﴿ منسكا ﴾ أى شريعة خاصة لا لأمة أخرى منهم على معنى عينا كل شريعة لأمة معينة من الأمم بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى لا استقلالا ولا اشتراكا وقوله تعالى ﴿ هم ناسكوه ﴾ صفة لمنسكا مؤكدة للقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور على الفعل والضمير لكل أمة باعتبار خصوصها أى تلك الأمة المعينة ناسكوه والعاملون به لا أمة أخرى فالأمة التى كانت من مبعث موسى عليه السلام إلى مبعث عيسى عليه السلام منسكهم التوراة هم ناسكوها والعاملون بها لا غيرهم

والتى كانت من مبعث عيسى إلى مبعث النبى عليهما السلام منسكهم الإنجيل هم ناسكوه والعاملون به لا غيرهم وأما الأمة الموجودة عند مبعث النبى عليه السلام ومن بعدهم من الموجودين إلى يوم القيامة فهم أمة واحدة منسكهم الفرقان ليس إلا كما مر فى تفسير قوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) والفاء فى قوله تعالى ﴿ فلا ينازعنك فى الأمر ﴾ لترتيب النهى أو موجبه على ما قبلها فإن تعيينه تعالى لكل أمة من الأمم التى من جملتهم هذه الأمة شريعة مستقلة بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها موجب لطاعة هؤلاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم منازعتهم إياه فى أمر الدين زعما منهم أن شريعتهم ما عين لآبائهم الأولين من التوراة والإنجيل فإنهما شريعتان لمن مضى من الأمم قبل انتساخها[1] وهؤلاء أمة مستقلة منسكهم القرآن المجيد فحسب والنهى إما على حقيقته أو كناية عن نهيه عليه السلام عن الالتفات إلى نزاعهم المبنى على زعمهم المذكور وأما جعله عبارة عن نهيه عليه السلام عن منازعتهم فلا يساعده المقام وقرىء فلا ينزعنك على تهييجه عليه السلام والمبالغة فى تثبيته وأياما كان فمحل النزاع ما ذكرناه وتخصيصه بأمر النسائك وجعله عبارة عن قول الخزاعيين وغيرهم للمسلمين مالكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله تعالى مما لا سبيل إليه أصلا كيف لا وأنه يستدعى أن يكون أكل الميتة وسائر ما يدينونه من الأباطيل من جملة المناسك التى جعلها الله تعالى لبعض الأمم ولا يرتاب فى بطلانه عاقل ﴿ وادع ﴾ أى وادعهم أو وادع الناس كافة على أنهم داخلون فيهم دخولا أوليا ﴿ إلى ربك ﴾ إلى توحيده وعبادته حسبما بين لهم فى منسكهم وشريعتهم ﴿ إنك لعلى هدى مستقيم ﴾ أى طريق موصل إلى الحق سوى والمراد به إما الدين والشريعة أو أدلتهما .

﴿ وإن جادلوك ﴾ بعد ظهور الحق بما ذكر من التحقيق ولزوم الحجة عليهم ﴿ فقل ﴾ لهم على سبيل الوعيد ﴿ الله أعلم بما تعملون ﴾ من الأباطيل

(١) فى ١٠ نسخهما

التى من جملتها المجادلة ﴿ الله يحكم بينكم ﴾ يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين ﴿ يوم القيامة ﴾ بالثواب والعقاب كما فصل فى الدنيا بالحجج والآيات ﴿ فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ من أمر الدين ﴿ ألم تعلم ﴾ استئناف مقرر لمضمون ماقبله والاستفهام للتقرير أى قد علمت ﴿ أن الله يعلم ما فى السماء والأرض ﴾ فلا يخفى عليه شىء من الأشياء التى من جملتها ما يقوله الكفرة وما يعملونه ﴿ إن ذلك ﴾ أى ما فى السماء والأرض ﴿ فى كتاب ﴾ هو اللوح قد كتب فيه قبل حدوثه فلا يهمنك أمرهم مع علمنا به وحفظنا له ﴿ إن ذلك ﴾ أى ما ذكر من العلم والإحاطة به وإثباته فى اللوح أو الحكم بينكم ﴿ على الله يسير ﴾ فإن علمه وقدرته مقتضى ذاته فلا يخفى عليه شىء ولا يعسر عليه مقدور .

﴿ ويعبدون من دون الله ﴾ حكاية لبعض أباطيل المشركين وأحوالهم الدالة على كمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم من بناء أمر دينهم على غير مبنى من دليل سمعى أو عقلى وإعراضهم عما ألقى عليهم من سلطان بين هو أساس الدين وقاعدته أشد إعراض أى يعبدون متجاوزين عبادة الله ﴿ مالم ينزل به ﴾ أى بجواز عبادته ﴿ سلطانا ﴾ أى حجة ﴿ وما ليس لهم به ﴾ اى بجواز عبادته ﴿ علم ﴾ من ضرورة العقل أو استدلاله ﴿ وما للظالمين ﴾ أى الذين ارتكبوا مثل هذا الظلم العظيم الذى يقضى ببطلانه وكونه ظلما بديهة العقول ﴿ من نصير ﴾ يساعدهم بنصرة مذهبهم وتقرير رأيهم أو بدفع العذاب الذى يعتريهم بسبب ظلمهم ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ﴾ عطف على يعبدون وما بينهما اعتراض وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددى ﴿ بينات ﴾ أى حال كونها واضحات الدلالة على العقائد الحقة والأحكام الصادقة أو على بطلان ماهم عليه من عبادة الأصنام أو على كونها من عند الله عز وجل ﴿ تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر ﴾ أى الإنكار كالمكرم بمعنى الإكرام أو الفظيع من التجهم والبسور أو الشر الذى يقصدونه بظهور مخايله من الأوضاع والهيئات وهو الأنسب بقوله تعالى : ﴿ يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ أى يثبون ويبطشون بهم من فرط الغيظ والغضب لأباطيل أخذوها تقليدا

وهل جهالة أعظم وأطم من أن يعبدوا ما لا يوهم صحة عبادته شيء ما أصلا بل يقضى ببطلانها العقل والنقل ويظهروا لمن يهديهم إلى الحق البين بالسلطان المبين مثل هذا المنكر الشنيع كلا ولهذا وضع الذين كفروا موضع الضمير .

﴿ قل ﴾ ردا عليهم وإقناطا عما يقصدونه من الإضرار بالمسلمين ﴿ أفأنبئكم ﴾ أى أأخاطبكم فأخبركم ﴿ بشر من ذلكم ﴾ الذى فيكم من غيظكم على التالين وسطوتكم بهم أو مما تبغونهم من الغوائل أو مما أصابكم من الضجر بسبب ما تلوه عليكم ﴿ النار ﴾ أى هو النار على أنه جواب لسؤال مقدر كأنه قيل ما هو وقيل هو مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ وعدها الله الذين كفروا ﴾ وقرىء النار بالنصب على الاختصاص وبالجر بدلا من شر فتكون الجملة الفعلية استئنافا كالوجه الأول أوحالا من النار بإضمار قد ﴿ وبئس المصير ﴾ النار ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل ﴾ أى بين لكم حال مستغربة أو قصة بديعة رائعة حقيقة بأن تسمى مثلا وتسير فى الأمصار والأعصار أو جعل لله مثل أى مثل فى استحقاق العبادة وأريد بذلك ما حكى عنهم من عبادتهم للأصنام ﴿ فاستمعوا له ﴾ أى للمثل نفسه استماع تدبر وتفكر أو فاستمعوا لأجله ما أقول فقوله تعالى :

﴿ إن الذين تدعون من دون الله ﴾ الخ بيان للمثل وتفسير له على الأول وتعليل لبطلان جعلهم الأصنام مثل الله سبحانه فى استحقاق العبادة على الثانى وقرىء بياء الغيبة مبنيا للفاعل ومبنيا للمفعول والراجع إلى الموصول على الأولين محذوف ﴿ لن يخلقوا ذبابا ﴾ أى لن يقدروا على خلقه أبدا مع صغره وحقارته فإن لن بما فيها من تأكيد النفى دالة على منافاة ما بين المنفى والمنفى عنه ﴿ ولو اجتمعوا له ﴾ أى لخلقه وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة معطوفة على شرطية أخرى محذوفة ثقة بدلالة هذه عليها أى لو لم يجتمعوا عليه لن يخلقوه ولو اجتمعوا له لن يخلقوه كما مر تحقيقه مرارا(١) وهما فى موضع

(١) فى ب : كثيرا .

الحال كأنه قيل لن يخلقوا ذبابا على كل حال ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئا ﴾ بيان لعجزهم عن الامتناع عما يفعل بهم الذباب بعد بيان عجزهم عن خلقه أى إن يأخذ الذباب منهم شيئا ﴿ لا يستنقذوه منه ﴾ مع غاية ضعفه ولقد جهلوا غاية التجهيل فى إشراكهم بالله القادر على جميع المقدورات المتفرد بإيجاد كافة الموجودات تماثيل هى أعجز الأشياء وبين ذلك بأنها لا تقدر على أقل الأحياء وأذلها ولو اتفقوا عليه بل لا تقوى على مقاومة هذا الأقل الأذل وتعجز عن ذبه عن نفسها واستنقاذ ما يختطفه منها قيل كانوا يطيبونها بالطيب والعسل ويغلقون عليها الأبواب فيدخل الذباب من الكوى فيأكله ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ أى عابد الصنم ومعبوده أو الذباب الطالب لما يسلبه من الصنم من الطيب والصنم المطلوب منه ذلك أو الصنم والذباب كأنه يطلبه ليستنقذ منه ما يسلبه ولو حققت وجدت الصنم أضعف من الذباب بدرجات وعابده أجهل من كل جاهل وأضل من كل ضال ﴿ ماقدروا الله حق قدره ﴾ أى ماعرفوه حق معرفته حيث أشركوا به وسموا باسمه ما هو أبعد الأشياء عنه مناسبة ﴿ إن الله لقوى ﴾ على خلق الممكنات بأسرها وإفناء الموجودات عن آخرها ﴿ عزيز ﴾ غالب على جميع الأشياء وقد عرفت حال آلهتهم المقهورة لأذلها العجزة عن أقلها والجملة تعليل لما قبلها من نفى معرفتهم له تعالى ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلا ﴾ يتوسطون بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم السلام بالوحى ﴿ ومن الناس ﴾ وهم المختصون بالنفوس الزكية المؤيدون بالقوة القدسية المتعلقون بكلا العالمين الروحانى والجسمانى يتلقون من جانب ويلقون إلى جانب ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل إلى جانب الحق فيدعونهم إليه تعالى بما أنزل عليهم ويعلمونهم شرائعه وأحكامه كأنه تعالى لما قرر وحدانيته فى الألوهية ونفى أن يشاركه فيها شىء من الأشياء بين أن له عبادا مصطفين للرسالة يتوسل بإجابتهم والاقتداء بهم إلى عبادته عز وجل وهو أعلى الدرجات وأقصى الغايات لمن عداه من الموجودات تقريرا للنبوة وتزييفا لقولهم (لو شاء الله لأنزل ملائكة) وقولهم (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفا) وقولهم (الملائكة بنات الله)

وغير ذلك من الأباطيل ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ عليم بجميع المسموعات والمبصرات فلا يخفى عليه شيء من الأقوال والأفعال ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور ﴾ لا إلى أحد غيره لا اشتراكا ولا استقلالا ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ﴾ أى فى صلواتكم أمرهم بهما لما أنهم ما كانوا يفعلونهما أول الإسلام أوصلوا عبر عن الصلاة بهما لأنهما أعظم أركانها أو اخضعوا لله تعالى وخروا له سجدا ﴿ واعبدوا ربكم ﴾ بسائر ما تعبدكم به ﴿ وافعلوا الخير ﴾ وتحروا ما هو خير وأصلح فى كل ما تأتون وما تذرون كنوافل الطاعات وصلة الأرحام ومكارم الأخلاق ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أى افعلوا هذه كلها وأنتم راجون بها الفلاح غير متيقنين له واثقين بأعمالكم والآية آية سجدة عند الشافعى رحمه الله لظاهر ما فيها من الأمر بالسجود ولقوله عليه الصلاة والسلام فضلت سورة الحج بسجدتين من لم يسجدهما فلا يقرأها ﴿ وجاهدوا فى الله ﴾ أى لله تعالى ولأجله أعداء دينه الظاهرة كأهل الزيغ والباطنة كالهوى والنفس وعنه عليه الصلاة والسلام أنه رجع من غزوة تبوك فقال رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ﴿ حق جهاده ﴾ أى جهادا فيه حقا خالصا لوجهه فعكس وأضيف الحق إلى الجهاد مبالغة كقولك هو حق عالم وأضيف الجهاد إلى الضمير اتساعا أو لأنه مختص به تعالى من حيث أنه مفعول لوجهه ومن أجله ﴿ هو اجتباكم ﴾ أى هو اختاركم لدينه ونصرته لاغيره وفيه تنبيه على ما يقتضى الجهاد ويدعو إليه ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ أى ضيق بتكليف ما يشق عليكم إقامته إشارة إلى أنه لا مانع لهم عنه ولا عذر لهم فى تركه أو إلى الرخصة فى إغفال بعض ما أمرهم به حيث يشق عليهم لقوله عليه الصلاة والسلام إذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وقيل ذلك بأن جعل لهم من كل ذنب مخرجا بأن رخص لهم فى المضايق وفتح لهم باب التوبة وشرع لهم الكفارات فى حقوقه والأروش والديات فى حقوق العباد ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ نصب على المصدر بفعل دل عليه مضمون ما قبله بحذف المضاف أى وسع عليكم دينكم توسعة ملة أبيكم أو على الإغراء أو على

الاختصاص وإنما جعله أباهم لأنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كالأب لأمته من حيث أنه سبب لحياتهم الأبدية ووجودهم على الوجه المعتد به فى الآخرة أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته عليه الصلاة والسلام فغلبوا على غيرهم ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ فى الكتب المتقدمة .

﴿ وفى هذا ﴾ أى فى القرآن والضمير لله تعالى ويؤيده أنه قرىء الله سماكم أو لإبراهيم وتسميتهم بالمسلمين فى القرآن وإن لم تكن منه عليه الصلاة والسلام كانت بسبب تسميته من قبل فى قوله (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) وقيل وفى هذا تقديره وفى هذا بيان تسميته إياكم المسلمين ﴿ ليكون الرسول ﴾ يوم القيامة متعلق بسماكم ﴿ شهيدا عليكم ﴾ بأنه بلغكم فيدل على قبول شهادته لنفسه اعتمادا على عصمته أو بطاعة من أطاع وعصيان من عصى ﴿ وتكونوا شهداء على الناس ﴾ بتبليغ الرسل إليهم ﴿ فأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة ﴾ أى فتقربوا إلى الله بأنواع الطاعات وتخصيصهما بالذكر لإنافتهما وفضلهما ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أى ثقوا به فى مجامع أموركم ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلا منه ﴿ هو مولاكم ﴾ ناصركم ومتولى أموركم ﴿ فنعم المولى ونعم النصير ﴾ هو إذ لا مثل له فى الولاية والنصرة بل لا ولى ولا نصير فى الحقيقة سواه عز وجل عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحج أعطى من الأجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقى .

* * *

سورة المؤمنون

مكية وهى عند البصريين مائة وتسع عشرة آية
وعند الكوفيين مائة وثمانى عشرة آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

من دلائل الإيمان

﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ الفلاح الفوز بالمرام والنجاة من المكروه وقيل البقاء فى الخير والإفلاح الدخول فى ذلك كالإبشار الذى هو الدخول فى البشارة وقد يجىء متعديا بمعنى الإدخال فيه وعليه قراءة من قرأ على البناء للمفعول وكلمة قد ههنا لإفادة ثبوت ما كان متوقع الثبوت من قبل لا متوقع الإخبار به ضرورة أن المتوقع من حال المؤمنين ثبوت الفلاح لهم لا الإخبار بذلك فالمعنى قد فازوا بكل خير ونجوا من كل ضير حسبما كان ذلك متوقعا من حالهم فإن إيمانهم وما تفرع عليه من أعمالهم الصالحة من دواعى الفلاح بموجب الوعد الكريم خلا أنه إن أريد بالإفلاح حقيقة الدخول فى الفلاح الذى لا يتحقق إلا فى الآخرة فالإخبار به على صيغة الماضى للدلالة على تحققه لا محالة بتنزيله منزلة الثابت وإن أريد كونهم بحال تستتبعه البتة فصيغة الماضى فى محلها وقرىء أفلحوا على الإبهام والتفسير أو على أكلونى البراغيث وقرىء أفلح بضمة اكتفى بها عن الواو كما فى قول من قال :

* ولو أن الأطبا كان حولى *

والمراد بالمؤمنين إما المصدقون بما علم ضرورة أنه من دين نبينا صلى الله عليه وسلم من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها فقوله تعالى : ﴿ الذين هم فى صلوتهم خاشعون ﴾ وما عطف عليه صفات مخصصة لهم وإما الآتون بفروعه أيضاً كما ينبىء عنه إضافة الصلاة إليهم فهى صفات موضحة أو مادحة لهم حسب اعتبار ما ذكر فى حيز الصلة من المعانى مع الإيمان إجمالا أو تفصيلا

كما مر فى أوائل سورة البقرة والخشوع الخوف والتذلل أى خائفون من الله عز وجل متذللون له ملزمون أبصارهم مساجدهم روى أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فلما نزلت رمى ببصره نحو مسجده وأنه رأى مصليا يعبث بلحيته فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه .

﴿ والذين هم عن اللغو ﴾ أى عما لا يعنيهم من الأقوال والأفعال ﴿ معرضون ﴾ أى فى عامة أوقاتهم كما ينبىء عنه الاسم الدال على الاستمرار فيدخل فى ذلك إعراضهم عنه حال اشتغالهم بالصلاة دخولا أوليا ومدار إعراضهم عنه ما فيه من الحالة الداعية إلى الإعراض عنه لا مجرد الاشتغال بالجد فى أمور الدين كما قيل فإن ذلك ربما يوهم أن لا يكون فى اللغو نفسه ما يزجرهم عن تعاطيه وهو أبلغ من أن يقال لا يلهون من وجوه جعل الجملة اسمية وبناء الحكم على الضمير والتعبير عنه بالاسم وتقديم الصلة عليه وإقامة الإعراض مقام الترك ليدل على تباعدهم عنه رأسا مباشرة وتسببا وميلا وحضورا فإن أصله أن يكون فى عرض غير عرضه .

﴿ والذين هم للزكوة فاعلون ﴾ وصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع فى الصلاة للدلالة على أنهم بلغوا الغاية القاصية من القيام بالطاعات البدنية والمالية والتجنب عن المحرمات وسائر ما توجب المروءة اجتنابه وتوسيط حديث الإعراض بينهما لكمال ملابسته بالخشوع فى الصلاة والزكاة مصدر لأنه الأمر الصادر عن الفاعل لا المحل الذى هو موقعه ومعنى الفعل قد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) ويجوز أن يراد بها العين على تقدير المضاف ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ ممسكون لها فالاستثناء فى قوله تعالى ﴿ إلا على أزواجهم ﴾ من نفى الإرسال الذى ينبىء عنه الحفظ أى لا يرسلونها على أحد إلا على أزواجهم وفيه إيذان بأن قوتهم الشهوية داعية لهم إلا ما لا يخفى وأنهم حافظون لها من استيفاء مقتضاها وبذلك يتحقق كمال العفة ويجوز أن تكون على بمعنى من وإليه ذهب الفراء كما فى قوله تعالى (إذا اكتالوا على الناس)

أى حافظون لها من كل أحد إلا من أزواجهم وقيل هى متعلقة بمحذوف وقع حالا من ضمير حافظون أى حافظون لها فى جميع الأحوال إلا حال كونهم والين أو قوامين على أزواجهم وقيل بمحذوف يدل عليه غير ملومين كأنه قيل يلامون على كل مباشر إلا على ما أطلق لهم فإنهم غير ملومين وحمل الحفظ على القصر عليهن ليكون المعنى حافظون فروجهم على الأزواج لا يتعداهن ثم يقال غير حافظين إلا عليهن تأكيدا على تأكيد تكلف على تكلف ﴿ أو ما ملكت أيمانهم ﴾ أى سراريهم عبر عنهن بما إجراء لهن لمملوكيتهن مجرى غير العقلاء أو لأنوثتهن المنبئة عن القصور وقوله تعالى ﴿ فإنهم غير ملومين ﴾ تعليل لما يفيده الاستثناء من عدم حفظ فروجهم منهن أى فإنهم غير ملومين على عدم حفظها منهن ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك ﴾ الذى ذكر من الحد المتسع وهو أربع من الحرائر أو ما شاء من الإماء ﴿ فأولئك هم العادون ﴾ الكاملون فى العدوان المتناهون فيه وليس فيه ما يدل حتما على تحريم المتعة حسبما نقل عن القاسم ابن محمد فإنه قال : إنها ليست زوجة له فوجب ألا تحل له أما إنها ليست زوجة له فلأنهما لا يتوارثان بالإجماع ولو كانت زوجة له لحصل التوارث لقوله تعالى ﴿ ولكم نصف ما ترك أزواجكم ﴾ فوجب أن لا تحل لقوله تعالى ﴿ إلا على أزواجهم ﴾ لأن لهم أن يقولوا إنها زوجة له فى الجملة وأما إن كل زوجة ترث فهم لا يسلمونها وأما ما قيل من أنه إن أريد لو كانت زوجة حال الحياة لم يفد وإن أريد بعد الموت فالملازمة ممنوعة فليس له معنى محصل نعم لو عكس لكان له وجه ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم ﴾ لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق أو الخلق ﴿ راعون ﴾ أى قائمون عليها حافظون لها على وجه الإصلاح وقرىء لأماناتهم ﴿ والذين هم على صلواتهم ﴾ المفروضة عليهم ﴿ يحافظون ﴾ يواظبون عليها ويؤدونها فى أوقاتها ولفظ الفعل فيه لما فى فى الصلاة من التجدد والتكرر وهو السر فى جمعها وليس فيه تكرير لما أن الخشوع فى الصلاة غير المحافظة عليها وفصلهما للإيذان بأن كلا منهما فضيلة مستقلة على حيالها ولو قرنا فى الذكر لربما توهم أن مجموع الخشوع والمحافظة

فضيلة واحدة ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المؤمنين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات وإيثارها[1] على الإضمار للإشعار بامتيازهم بها عن غيرهم ونزولهم منزلة المشار إليه حسا وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو طبقتهم وبعد درجتهم فى الفضل والشرف أى أولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿ هم الوارثون ﴾ أى الأحقاء بأن يسموا وراثا دون من عداهم ممن ورث رغائب الأموال والذخائر وكرائمها ﴿ الذين يرثون الفردوس ﴾ بيان لما يرثونه وتقييد للوراثة بعد إطلاقها وتفسيرها بعد إبهامها تفخيما لشأنها ورفعا لمحلها وهى استعارة لاستحقاقهم الفردوس بأعمالهم حسبما يقتضيه الوعد الكريم للمبالغة فيه وقيل إنهم يرثون من الكفار منازلهم فيها حيث فوتوها على أنفسهم لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلا فى الجنة ومنزلا فى النار ﴿ هم فيها ﴾ أى فى الفردوس والتأنيث لأنه اسم للجنة أو لطبقتهم العليا وهو البستان الجامع لأصناف الثمر روى أنه تعالى بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة وجعل خلالها المسك الأذفر وفى رواية ولبنة من مسك مذرى وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان ﴿ خالدون ﴾ لا يخرجون منها أبدا والجملة إما مستأنفة مقررة لما قبلها وإما حال مقدرة من فاعل يرثون أو مفعوله إذ فيها ذكر كل منهما ومعنى الكلام لا يموتون ولا يخرجون منها .

خلق الإنسان

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ شروع فى بيان مبدأ خلق الإنسان وتقلبه فى أطوار الخلقة وأدوار الفطرة بيانا إجماليا إثر بيان حال بعض أفراده السعداء واللام جواب قسم والواو ابتدائية وقيل عاطفة على ما قبلها والمراد بالإنسان الجنس أى وبالله لقد خلقنا جنس الإنسان فى ضمن خلق آدم عليه السلام خلقا إجماليا حسبما تحققته فى سورة الحج وغيرها وأما كونه مخلوقا من سلالات جعلت نطفا بعد أدوار وأطوار فبعيد ﴿ من سلالة ﴾ السلالة ما سل من الشىء

(١) أى وإيثار اسم الإشارة على الضمير .

واستخرج منه فإن فعالة اسم لما يحصل من الفعل فتارة تكون مقصودا منه كالخلاصة وأخرى غير مقصود منه كالقلامة والكناسة والسلالة من قبيل الأول. فإنها مقصودة بالسل ومن ابتدائية متعلقة بالخلق ومن فى قوله تعالى ﴿ من طين ﴾ بيانية متعلقة بمحذوف وقع صفة لسلالة أى خلقناه من سلالة كائنة من طين ويجوز أن تتعلق بسلالة على أنها بمعنى مسلولة فهى ابتدائية كالأولى وقيل المراد بالإنسان آدم عليه السلام فإنه الذى خلق من صفوة سلت من الطين وقد وقفت على التحقيق ﴿ ثم جعلناه ﴾ أى الجنس باعتبار أفراده المغايرة لآدم عليه السلام أو جعلنا نسله على حذف المضاف إن أريد بالإنسان آدم عليه السلام ﴿ نطفة ﴾ بأن خلقناه منها أو ثم جعلنا السلالة نطفة والتذكير بتأويل الجوهر أو المسلول أو الماء ﴿ فى قرار ﴾ أى مستقر وهو الرحم عبر عنها بالقرار الذى هو مصدر مبالغة وقوله تعالى ﴿ مكين ﴾ وصف لها بصفة ما استقر فيها مثل طريق سائر أو بمكانتها فى نفسها فإنها مكنت بحيث هى وأحرزت .

﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ أى دما جامدا بأن أحلنا النطفة البيضاء علقة حمراء ﴿ فخلقنا العلقة مضغة ﴾ أى قطعة لحم لا استبانة ولا تمايز فيها ﴿ فخلقنا المضغة ﴾ أى غالبها ومعظمها أو كلها ﴿ عظاما ﴾ بأن صلبناها وجعلناها عمودا للبدن على هيئات وأوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة ﴿ فكسونا العظام ﴾ المعهودة ﴿ لحما ﴾ من بقية المضغة أو مما أنبتنا عليها بقدرتنا مما يصل إليها أى كسونا كل عظم من تلك العظام ما يليق به من اللحم على مقدار لائق به وهيئة مناسبة له واختلاف العواطف للتنبيه على تفاوت الاستحالات وجمع العظام لاختلافهما وقرىء على التوحيد فيهما اكتفاء بالجنس وبتوحيد الأول فقط وبتوحيد الثانى فحسب ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ هى صورة البدن أو الروح أو القوى بنفخه فيه أو المجموع وثم لكمال التفاوت بين الخلقين واحتج به أبو حنيفة رحمه الله على أن من غصب بيضة فأفرخت عنده لزمه ضمان البيضة لا الفرخ لأنه خلق آخر .

﴿ فتبارك الله ﴾ فتعالى شأنه فى علمه الشامل وقدرته الباهرة والالتفات

إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة والإشعار بأن ما ذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية وللإيذان بأن حق كل من سمع ما فصل من آثار قدرته عز وعلا أو لاحظه أن يسارع إلى التكلم به إجلالا وإعظاما لشؤونه تعالى ﴿ أحسن الخالقين ﴾ بدل من الجلالة وقيل نعت بناء على أن الإضافة ليست لفظية وقيل خبر مبتدأ محذوف أى هو أحسن الخالقين خلقا أى المقدرين تقديرا حذف المميز لدلالة الخالقين عليه كما حذف المأذون فيه فى قوله تعالى (أذن للذين يقاتلون) لدلالة الصلة عليه أى أحسن الخالقين خلقا فالحسن للخلق قيل نظيره قوله عليه الصلاة والسلام إن الله جميل يحب الجمال أى جميل فعله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فانقلب مرفوعا فاستكن وروى أن عبد الله بن أبى سرح كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى فلما انتهى عليه الصلاة والسلام إلى قوله خلقا آخر سارع عبد الله إلى النطق به قبل إملائه عليه الصلاة والسلام فقال اكتبه هكذا نزلت فشك عبد الله فقال إن كان محمد يوحى إليه فأنا كذلك فلحق بمكة كافرا ثم أسلم يوم الفتح وقيل مات على كفره وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لما نزلت هذه الآية قال عمر رضى الله عنه فتبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا نزل ياعمر وكان رضى الله عنه يفتخر بذلك ويقول وافقت ربى فى أربع الصلاة خلف المقام وضرب الحجاب على النسوة وقولى لهن أو ليبدله الله خيرا منكن فنزل قوله تعالى (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله) الآية والرابع فتبارك الله أحسن الخالقين أنظر كيف وقعت هذه الواقعة سببا لسعادة عمر رضى الله عنه وشقاوة ابن أبى سرح حسبما قال تعالى (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا) لا يقال فقد تكلم البشر ابتداء بمثل نظم القرآن وذلك قادح فى إعجازه لما أن الخارج عن قدرة البشر ما كان مقدار أقصر السور على أن إعجاز هذه الآية الكريمة منوط بما قبلها كما تعرب عنه الفاء فإنها اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله ﴿ ثم إنكم بعد ذلك ﴾ أى بعد ما ذكر من الأمور العجيبة حسبما ينبىء عنه ما فى اسم الإشارة من معنى البعد المشعر بعلو رتبة المشار إليه

وبعد منزلته فى الفضل والكمال وكونه بذلك ممتازا منزلا منزلة الأمور الحسية ﴿ لميتون ﴾ لصائرون إلى الموت لا محالة كما تؤذن به صيغة النعت الدالة على الثبوت دون الحدوث الذى تفيده صيغة الفاعل وقد قرىء لمائتون ﴿ ثم إنكم يوم القيامة ﴾ أى عند النفخة الثانية ﴿ تبعثون ﴾ من قبوركم للحساب والمجازاة بالثواب والعقاب .

﴿ ولقد خلقنا فوقكم ﴾ بيان لخلق ما يحتاج إليه بقاؤهم إثر بيان خلقهم أى خلقنا فى جهة العلو من غير اعتبار فوقيتها لهم لأن تلك النسبة إنما تعرض لها بعد خلقهم ﴿ سبع طرائق ﴾ هى السموات السبع سميت بها لأنها طورق بعضها فوق بعض مطارقة النعل فإن كل مافوقه مثله فهو طريقة أو لأنها طرائق الملائكة أو الكواكب فيها مسيرها ﴿ وما كنا عن الخلق ﴾ عن ذلك المخلوق الذى هو السموات أو عن جميع المخلوقات التى هى من جملتها أو عن الناس ﴿ غافلين ﴾ مهملين أمرها بل نحفظها عن الزوال والاختلال وندبر أمرها حتى تبلغ منتهى ما قدر لها من الكمال حسبما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة ويصل إلى ما فى الأرض منافعها كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ وأنزلنا من السماء ماء ﴾ هو المطر أو الأنهار النازلة من الجنة قيل هى خمسة أنهار سيحون نهر الهند وجيحون نهر بلخ ودجلة والفرات نهرا العراق والنيل نهر مصر أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة فاستودعها الجبال وأجراها فى الأرض وجعل فيها منافع للناس فى فنون معايشهم ومن ابتدائية متعلقة بأنزلنا وتقديمها على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر والعدول عن الإضمار لأن الإنزال لا يعتبر فيه عنوان كونها طرائق بل مجرد كونها جهة العلو ﴿ بقدر ﴾ بتقدير لائق لاستجلاب منافعهم ودفع مضارهم[1] أو بمقدار ما علمنا من حاجاتهم ومصالحهم ﴿ فأسكناه فى الأرض ﴾ أى جعلناه ثابتا قارا فيها ﴿ وإنا على ذهاب به ﴾ أى إزالته بالإفساد أو التصعيد أو التغوير بحيث

(١) فى ١٠ : لاستجلاب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم .

يتعذر استنباطه ﴿ لقادرون ﴾ كما كنا قادرين على إنزاله وفى تنكير ذهاب إيماء إلى كثرة طرقه ومبالغة فى الإبعاد به ولذلك جعل أبلغ من قوله تعالى (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين) ﴿ فأنشأنا لكم به ﴾ أى بذلك الماء .

﴿ جنات من نخيل وأعناب لكم فيها ﴾ فى الجنات ﴿ فواكه كثيرة ﴾ تتفكهون بها ﴿ ومنها ﴾ من الجنات ﴿ تأكلون ﴾ تغذيا أو ترزقون وتحصلون معايشكم من قولهم فلان يأكل من حرفته ويجوز أى يعود الضميران للنخيل والأعناب أى لكم فى ثمراتها أنواع من الفواكه كالرطب والعنب والتمر والزبيب والعصير والدبس وغير ذلك وطعام تأكلونه ﴿ وشجرة ﴾ بالنصب عطف على جنات وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف دل عليه ما قبله أى ومما أنشىء لكم به شجرة وتخصيصها بالذكر من بين سائر الأشجار لاستقلالها بمنافع معروفة قيل هى أول شجرة نبتت بعد الطوفان وقوله تعالى ﴿ تخرج من طور سيناء ﴾ وهو جبل موسى عليه السلام بين مصر وأيلة وقيل بفلسطين ويقال له طور سينين فإما أن يكون الطور اسم الجبل وسيناء اسم البقعة أضيف إليها أو المركب منهما علم له كامرىء القيس ومنع صرفه على قراءة من كسر السين للتعريف والعجمة أو التأنيث على تأويل البقعة لا للألف لأنه فيعال كديماس من السناء بالمد وهو الرفعة أو بالقصر وهو النور أو ملحق بفعلال كعلباء من السين إذ لا فعلاء بألف التأنيث بخلاف سيناء فإنه فيعال ككيسان أو فعلاء كصحراء إذ لا فعلال فى كلامهم وقرىء بالكسر والقصر والجملة صفة لشجرة وتخصيصها بالخروج منه مع خروجها من سائر البقاع أيضا لتعظيمها ولأنه المنشأ الأصلى لها وقوله تعالى ﴿ تنبت بالدهن ﴾ صفة أخرى لشجرة والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا منها أى تنبت ملتبسة به ويجوز كونها صلة معدية أى تنبته بمعنى تتضمنه وتحصله فإن النبات حقيقة صفة للشجرة ولا للدهن وقرىء تنبت من الإفعال وهو إما من الإنبات بمعنى النبات كما فى قول زهير :

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم قطينا لهم حتى إذا أنبت البقل

أو على تقدير تنبت زيتونها ملتبسا بالدهن وقرىء على البناء للمفعول وهو كالأول وتثمر بالدهن وتخرج بالدهن وتنبت بالدهان ﴿ وصبغ للآكلين ﴾ معطوف على الدهن جار على إعرابه عطف أحد وصفى الشيء على الآخر أى تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهنا يدهن به ويسرج منه وكونه إداما يصبغ فيه الخبز أى يغمس فيه للائتدام وقرىء وصباغ كدباغ فى دبغ .

﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة ﴾ بيان النعم الفائضة عليهم من جهة الحيوان إثر بيان النعم الواصلة إليهم من جهة الماء والنبات وقد بين أنها مع كونها فى نفسها نعمة ينتفعون بها على وجوه شتى عبرة لابد من أن يعتبروا بها ويستدلوا بأحوالها على عظيم قدرة الله عز وجل وسابغ رحمته ويشكروه ولا يكفروه وخص هذا بالحيوان لما أن محل العبرة فيه أظهر مما فى النبات وقوله تعالى : ﴿ نسقيكم مما فى بطونها ﴾ تفصيل لما فيها من مواقع العبرة وما فى بطونها عبارة إما عن الألبان فمن تبعيضية والمراد بالبطون الجوف أو عن العلف الذى يتكون منه اللبن فمن ابتدائية والبطون على حقيقتها وقرىء بفتح النون وبالتاء أى تسقيكم الأنعام ﴿ ولكم فيها منافع كثيرة ﴾ غير ما ذكر من أصوافها وأشعارها ﴿ ومنها تأكلون ﴾ فتنتفعون بأعيانها كما تنتفعون بما يحصل منها ﴿ وعليها ﴾ أى على الأنعام فإن الحمل عليها لا يقتضى الحمل على جميع أنواعها بل يتحقق بالحمل على البعض كالإبل ونحوها وقيل المراد هى الإبل خاصة لأنها هى المحمول عليها عندهم والمناسب للفلك فإنها سفائن البر قال ذو الرمة :

* سفينة بر تحت خدى زمامها *

فالضمير فيه كما فى قوله تعالى : (وبعولتهن أحق بردهن) ﴿ وعلى الفلك تحملون ﴾ أى فى البر والبحر وفى الجمع بينها وبين الفلك فى إيقاع الحمل عليها مبالغة فى تحملها للحمل وهو الداعى إلى تأخير ذكر هذه المنفعة مع كونها من المنافع الحاصلة منها عن ذكر منفعة الأكل المتعلقة بعينها .

إهمال الأمم السابقة للاعتبار

﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ﴾ شروع فى بيان إهمال الأمم السابقة وتركهم النظر والاعتبار فيما عدد من النعم الفائتة للحصر وعدم تذكرهم بتذكير رسلهم وما حاق بهم لذلك من فنون العذاب تحذيرا للمخاطبين وتقديم قصة نوح عليه السلام على سائر القصص مما لا يخفى وجهه وفى إيرادها إثر قوله تعالى (وعلى الفلك تحملون) من حسن الموقع مالا يوصف والواو ابتدائية واللام جواب قسم محذوف وتصدير القصة به لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها أى وبالله لقد أرسلنا نوحا الخ ونسبه الكريم وكيفية بعثه وكمية لبثه فيما بينهم قد مر تفصيله فى سورة الأعراف وسورة هود ﴿ فقال ﴾ متعطفا عليهم ومستميلا لهم إلى الحق ﴿ يا قوم اعبدوا الله ﴾ أى اعبدوه وحده كما يفصح عنه قوله تعالى فى سورة هود (أن لا تعبدوا إلا الله) وترك التقييد به للإيذان بأنها هى العبادة فقط وأما العبادة بالإشراك فليست من العبادة فى شىء رأسا وقوله تعالى : ﴿ مالكم من إله غيره ﴾ استئناف مسوق لتعليل العبادة المأمور بها أو تعليل الأمر بها وغيره بالرفع صفة لا له باعتبار محله الذى هو الرفع على أنه فاعل أو مبتدأ خبره لكم أو محذوف ولكم للتخصيص والتبيين أى مالكم فى الوجود أو فى العالم إله غيره تعالى وقرىء بالجر باعتبار لفظه ﴿ أفلا تتقون أنفسكم عذابه الذى يستوجبه ما أنتم عليه من ترك عبادته تعالى كما يفصح عنه قوله تعالى (إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وقوله تعالى (عذاب يوم أليم) وقيل أفلا تخافون أن ترفضوا عبادة الله الذى هو ربكم الخ وليس بذاك وقيل أفلا تخافون أن يزيل عنكم نعمه الخ وفيه ما فيه والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أتعرفون ذلك أى مضمون قوله تعالى (مالكم من إله غيره) فلا تتقون عذابه بسبب إشراككم به فى العبادة مالا يستحق الوجود لولا إيجاد الله تعالى إياه فضلا عن استحقاق العبادة فالمنكر عدم الاتقاء مع تحقق ما يوجبه أو ألا تلاحظون ذلك فلا تتقونه فالمنكر كلا الأمرين

فالمبالغة حينئذ فى الكمية وفى الأول فى الكيفية ﴿ فقال الملأ ﴾ أى الأشراف ﴿ الذين كفروا من قومه ﴾ وصف الملأ بما ذكر مع اشتراك الكل فيه للإيذان بكمال عراقتهم فى الكفر وشدة شكيمتهم فيه أى قالوا لعوامهم ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم ﴾ أى فى الجنس والوصف من غير فرق بينكم وبينه وصفوه عليه السلام بذلك مبالغة فى وضع رتبته العالية وحطها عن منصب النبوة ﴿ يريد أن يتفضل عليكم ﴾ أى يريد أن يطلب الفضل عليكم ويتقدمكم بادعاء الرسالة مع كونه مثلكم وصفوه بذلك إغضابا للمخاطبين عليه عليه السلام وإغراء لهم على معاداته عليه السلام وقوله تعالى :

﴿ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ بيان لعدم رسالة البشر على الإطلاق على زعمهم الفاسد بعد تحقيق بشريته عليه السلام أى لو شاء الله تعالى إرسال الرسول لأرسل رسلا من الملائكة وإنما قيل لأنزل لأن إرسال الملائكة لا يكون إلا بطريق الإنزال فمفعول المشيئة مطلق الإرسال المفهوم من الجواب لا نفس مضمونه كما فى قوله تعالى (ولو شاء لهداكم) ونظائره ﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ أى بمثل هذا الكلام الذى هو الأمر بعبادة الله خاصة وترك عبادة ما سواه وقيل بمثل نوح عليه السلام فى دعوى النبوة ﴿ فى آبائنا الأولين ﴾ أى الماضين قبل بعثته عليه السلام قالوه إما لكونهم وآبائهم فى فترة متطاولة وإما لفرط غلوهم فى التكذيب والعناد وانهماكهم فى الغى والفساد وأياما كان فقولهم هذا ينبغى أن يكون هو الصاد عنهم فى مبادى دعوته عليه السلام كما تنبىء عنه الفاء فى قوله تعالى (فقال الملأ) الخ وقيل معناه ما سمعنا به عليه السلام أنه نبى فالمراد بآبائهم الأولين الذين مضوا قبلهم فى زمن نوح عليه السلام وقولهم المذكور هو الذى صدر عنهم فى أواخر أمره عليه السلام وهو المناسب لما بعده من حكاية دعائه عليه السلام وقولهم ﴿ إن هو ﴾ أى ما هو ﴿ إلا رجل به جنة ﴾ أى جنون أو جن يخيلونه ولذلك يقول ما يقول ﴿ فتربصوا به ﴾ أى احتملوه واصبروا عليه وانتظروا ﴿ حتى حين ﴾ لعله يفيق مما فيه محمول حينئذ على ترامى أحوالهم فى المكابرة والعناد وإضرابهم عما وصفوه

عليه السلام به من البشرية وإرادة التفضل إلى وصفه عليه السلام بما ترى وهم يعرفون أنه عليه السلام أرجح الناس عقلا وأرزنهم قولا وعلى الأول على تناقض مقالاتهم الفاسدة قاتلهم الله أنى يؤفكون .

﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية كلام الكفرة كأنه قيل فماذا قال عليه السلام بعد ماسمع منهم هذه الأباطيل فقيل قال لما رآهم قد أصروا على الكفر والتكذيب وتمادوا فى الغواية والضلال حتى يئس من إيمانهم بالكلية وقد أوحى الله إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴿ رب انصرنى ﴾ بإهلاكهم بالمرة فإنه حكاية إجمالية لقوله عليه السلام (رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا) الخ ﴿ بما كذبون ﴾ أى بسبب تكذيبهم إياى أو بدل تكذيبهم ﴿ فأوحينا إليه ﴾ عند ذلك ﴿ أن اصنع الفلك ﴾ أن مفسرة لما فى الوحى من معنى القول ﴿ بأعيننا ﴾ ملتبساً بحفظنا وكلاءتنا كأن معه عليه السلام منه عز وعلا حفاظا وحراسا يكلؤونه بأعينهم من التعدى أو من الزيغ فى الصنعة ﴿ ووحينا ﴾ وأمرنا وتعليمنا لكيفية صنعها والفاء فى قوله تعالى ﴿ فإذا جاء أمرنا ﴾ لترتيب مضمون ما بعدها على تمام صنع الفلك والمراد بالأمر العذاب كما فى قوله تعالى (لا عاصم اليوم من أمر الله) لا الأمر بالركوب كما قيل وبمجيئه كمال اقترابه أو ابتداء ظهوره أى إذا جاء إثر تمام الفلك عذابنا وقوله تعالى ﴿ وفار التنور ﴾ عطف بيان لمجيء الأمر روى أنه قيل له عليه السلام إذا فار الماء من التنور اركب أنت ومن معك وكان تنور آدم عليه السلام فصار إلى نوح عليه السلام فلما نبع منه الماء أخبرته امرأته فركبوا واختلف فى مكانه فقيل كان فى مسجد الكوفة أى فى موضعه عن يمين الداخل من باب كندة اليوم وقيل كان فى عين وردة من الشام وقد مر تفصيله فى تفسير سورة هود عليه السلام ﴿ فاسلك فيها ﴾ أى أدخل فيها يقال سلك فيه أى دخل فيه وسلكه فيه أى أدخله فيه ومنه قوله تعالى (ما سلككم فى سقر) ﴿ من كل ﴾ أى من كل أمة ﴿ زوجين ﴾ أى فردين مزدوجين كما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ اثنين ﴾ فإنه نص فى الفردين دون الجمعين أو الفريقين وقرىء بالإضافة على أن المفعول

اثنين أى من كل أمتى زوجين وهما أمة الذكر وأمة الأنثى كالجمال والنوق والحصن والرماك وهذا صريح فى أن الأمر كان قبل صنعه الفلك وفى سورة هود (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين) فالوجه أن يحمل إما على أنه حكاية لأمر آخر تنجيزى ورد عند فوران التنور الذى نيط به الأمر التعليقى اعتناء بشأن المأمور به أو على أن ذلك هو الأمر السابق بعينه لكن لما كان الأمر التعليقى قبل تحقق المعلق به فى حق إيجاب المأمور به بمنزلة العدم جعل كأنه إنما حدث عند تحققه فحكى على صورة التنجيز وقد مر فى تفسير قوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) .

﴿ وأهلك ﴾ منصوب بفعل معطوف على فاسلك لا بالعطف على زوجين أو اثنين على القراءتين لأدائه إلى اختلال المعنى أى واسلك أهلك والمراد به امرأته وبنوه وتأخير الأمر بإدخالهم عما ذكر من إدخال الأزواج فيها لكونه عريقا فيما أمر به من الإدخال فإنه يحتاج إلى مزاولة الأعمال منه عليه السلام بل إلى معاونة من أهله وأتباعه وأما هم فإنما يدخلونها باختيارهم بعد ذلك ولأن فى المؤخر ضرب تفصيل بذكر الاستثناء وغيره فتقديمه يؤدى إلى الإخلال بتجاوب أطراف النظم الكريم ﴿ إلا من سبق عليه القول منهم ﴾ أى القول بإهلاك الكفرة وإنما جىء بعلى لكون السابق ضارا كما جىء باللام فى قوله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) لكونه نافعا ﴿ ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ﴾ بالدعاء لإنجائهم ﴿ إنهم مغرقون ﴾ تعليل للنهى أو لما ينبىء عنه من عدم قبول الدعاء أى إنهم مقضى عليهم بالإغراق لا محالة لظلمهم بالإشراك وسائر المعاصى ومن هذا شأنه لا يشفع له ولا يشفع فيه كيف لاوقد أمر بالحمد على النجاة منهم بهلاكهم بقوله تعالى ﴿ فإذا استويت أنت ومن معك ﴾ أى من أهلك وأشياعك ﴿ على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين ﴾ على طريقة قوله تعالى (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) ﴿ وقل رب أنزلنى ﴾ فى السفينة أو منها ﴿ منزلا مباركا ﴾ أى إنزالا أو موضع إنزال يستتبع خيرا كثيرا وقرىء منزلا أى موضع نزول ﴿ وأنت خير المنزلين ﴾

أمر عليه السلام بأن يشفع دعاءه بما يطابقه من ثنائه عز وجل توسلا به إلى الإجابة وإفراده عليه السلام بالأمر مع شركة الكل فى الاستواء والنجاة لإظهار فضله عليه السلام والإشعار بأن فى دعائه وثنائه مندوحة عما عداه .

﴿ إن فى ذلك ﴾ الذى ذكر مما فعل به عليه السلام وبقومه ﴿ لآيات ﴾ جليلة يستدل بها أولو الأبصار ويعتبر بها ذوو الاعتبار ﴿ وإن كنا لمبتلين ﴾ إن مخففة من أن واللام فارقة بينها وبين النافية وضمير الشأن محذوف أى وإن الشأن كنا مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد أومختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويتذكر كقوله تعالى (ولقد تركناها آية فهل من مدكر) ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم ﴾ أى من إهلاكهم ﴿ قرنا آخرين ﴾ هم عاد حسبما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وعليه أكثر المفسرين وهو الأوفق لما هو المعهود فى سائر السور الكريمة من إيراد قصتهم إثر قصة قوم نوح وقيل هم ثمود ﴿ فأرسلنا فيهم ﴾ جعلوا موضعا للإرسال كما فى قوله تعالى (كذلك أرسلناك فى أمة) ونحوه لا غاية له كما فى مثل قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه) للإيذان من أول الأمر بأن من أرسل إليهم لم يأتهم من غير مكانهم بل إنما نشأ فيما بين أظهرهم كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ رسولا منهم ﴾ أى من جملتهم نسبا فإنهما عليهما السلام كانا منهم وأن فى قوله تعالى ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ مفسرة لأرسلنا لتضمنه معنى القول أى قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله تعالى وقوله تعالى ﴿ مالكم من إله غيره ﴾ تعليل للعبادة المأمور بها أو للأمر بها أو لوجوب الامتثال به ﴿ أفلا تتقون ﴾ أى عذابه الذى يستدعيه ما أنتم عليه من الشرك والمعاصى والكلام فى العطف كالذى مر فى قصة نوح عليه السلام .

﴿ وقال الملأ من قومه ﴾ حكاية لقولهم الباطل إثر حكاية القول الحق الذى ينطق به حكاية إرسال الرسول بطريق العطف على أن المراد حكاية مطلق تكذيبهم له عليه السلام إجمالا لا حكاية ما جرى بينه عليه السلام وبينهم من المحاورة والمقاولة تفصيلا حتى يحكى بطريق الاستئناف المبنى على السؤال

كما ينبيء عنه ما سيأتى من حكاية سائر الأمم أى وقال الأشراف من قومه ﴿ الذين كفروا ﴾ فى محل الرفع على أنه صفة للملأ وصفوا بذلك ذما لهم وتنبيها على غلوهم فى الكفر وتأخيره عن من قومه لعطف قوله تعالى ﴿ وكذبوا بلقاء الآخرة ﴾ وما عطف عليه على الصلة الأولى أى كذبوا بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب أو بمعادهم إلى الحياة الثانية بالبعث ﴿ وأترفناهم ﴾ ونعمناهم ﴿ فى الحيوة الدنيا ﴾ بكثرة الأموال والأولاد أى قالوا لأعقابهم مضلين لهم ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم ﴾ أى فى الصفات والأحوال وإيثار مثلكم على مثلنا للمبالغة فى تهوين أمره عليه السلام وتوهينه ﴿ يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾ تقرير للمماثلة وما خبرية والعائد إلى الثانى منصوب محذوف أو مجرور وقد حذف مع الجار لدلالة ما قبله عليه ﴿ ولئن أطعتم بشرا مثلكم ﴾ أى فيما ذكر من الأحوال والصفات أى إن امتثلتم بأوامره ﴿ إنكم إذاً ﴾ أى على تقدير الاتباع ﴿ لخاسرون ﴾ عقولهم ومغبونون فى آرائهم حيث أذللتم أنفسكم أى أنظر كيف جعلوا أتباع الرسول الحق الذى يوصلهم إلى سعادة الدارين خسرانا دون عبادة الأصنام التى لا خسران وراءها قاتلهم الله أنى يؤفكون وإذاً واقع بين اسم إن وخبرها لتأكيد مضمون الشرط والجملة جواب لقسم محذوف قبل إن الشرطية المصدرة باللام الموطئة أى وبالله لئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذاً لخاسرون ﴿ أيعدكم ﴾ استئناف مسوق لتقرير ما قبله من اتباعه عليه السلام بإنكار وقوع ما يدعوهم إلى الإيمان واستبعاده ﴿ أنكم إذا متم ﴾ بكسر الميم من مات يمات وقرىء بضمها من مات يموت ﴿ وكنتم ترابا وعظاما ﴾ نخرة مجردة عن اللحوم والأعصاب[1] أى كان بعض أجزائكم من اللحم ونظائره ترابا وبعضها عظاما وتقديم التراب لعراقته فى الاستبعاد وانقلابه من الأجزاء البادية أو كان متقدموكم ترابا صرفا ومتأخروكم عظاما وقوله تعالى ﴿ أنكم ﴾ تأكيد للأول لطول الفصل بينه

(١) فى ١٠ : عن اللحم والعصب

وبين خبره الذى هو قوله تعالى ﴿ مخرجون ﴾ أى من القبور أحياء كما كنتم وقيل أنكم مخرجون مبتدأ وإذا متم خبره على معنى إخراجكم إذا متم ثم أخبر بالجملة على أنكم وقيل رفع أنكم مخرجون بفعل هو جزاء الشرط كأنه قيل إذا متم وقع إخراجكم ثم أوقعت الجملة الشرطية خبرا عن أنكم والذى تقتضيه جزالة النظم الكريم هو الأول وقرىء أيعدكم إذا متم الخ

﴿ هيهات هيهات ﴾ تكرير لتأكيد البعد أى بعد الوقوع أو الصحة ﴿ لما توعدون ﴾ وقيل اللام لبيان المستبعد ما هو كما فى هيت لك كأنهم لما صوتوا بكلمة الاستبعاد قيل لما هذا الاستبعاد فقيل لما توعدون وقيل هيهات بمعنى البعد وهو مبتدأ خبره لما توعدون وقرىء بالفتح منونا للتنكير وبالضم منونا على أنه جمع هيهة وغير منون تشبيها بقبل وبالكسر على الوجهين وبالسكون على لفظ الوقف وإبدال التاء هاء ﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا ﴾ أصله إن الحياة إلا حياتنا فأقيم الضمير مقام الأولى لدلالة الثانية عليها حذرا من التكرار وإشعارا بإغنائها عن التصريح كما فى هى النفس تتحمل ما حملت وهى العرب تقول ما شاءت وحيث كان الضمير بمعنى الحياة لدلالة على الجنس كانت إن النافية بمنزلة لا النافية للجنس وقوله تعالى ﴿ نموت ونحيا ﴾ جملة مفسرة لما ادعوه من أن الحياة هى الحياة الدنيا أى يموت بعضنا أو يولد بعض إلى انقراض العصر ﴿ وما نحن بمبعوثين ﴾ بعد الموت ﴿ إن هو ﴾ أى ما هو ﴿ إلا رجل افترى على الله كذبا ﴾ فيما يدعيه من إرساله وفيما يعدنا من أن الله يبعثنا ﴿ وما نحن له بمؤمنين ﴾ بمصدقين فيما يقوله ﴿ قال ﴾ أى هود عليه السلام عند يأسه من إيمانهم بعد ما سلك فى دعوتهم كل مسلك منصرفا إلى الله عز وجل ﴿ رب انصرنى ﴾ وانتقم لى منهم ﴿ بما كذبون ﴾ أى بسبب تكذيبهم إياى وإصرارهم عليه

﴿ قال ﴾ تعالى إجابة لدعائه وعدة بالقبول ﴿ عما قليل ﴾ أى عن زمان قليل وما مزيدة بين الجار والمجرور لتأكيد معنى القلة كما زيدت فى قوله تعالى (فبما رحمة من الله) أو نكرة موصوفة أى عن شىء قليل ﴿ ليصبحن نادمين ﴾

على ما فعلوه من التكذيب وذلك عند معاينتهم للعذاب ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ لعلهم حين أصابتهم الريح العقيم أصيبوا فى تضاعيفها بصيحة هائلة أيضا وقد روى أن شداد بن عاد حين تم بناء إرم سار إليها بأهله فلما دنا منها بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا وقيل الصيحة نفس العذاب والموت وقيل هى العذاب المصطلم قال قائلهم :

صاح الزمان بآل برمك صيحة خروا لشدتها على الأذقان

﴿ بالحق ﴾ متعلق بالأخذ أى بالأمر الثابت الذى لا دفاع له أو بالعدل من الله تعالى أو بالوعد الصدق ﴿ فجعلناهم غثاء ﴾ أى كغثاء السيل وهو حميله ﴿ فبعداً للقوم الظالمين ﴾ إخبار أو دعاء وبعدا من المصادر التى لا يكاد يستعمل ناصبها والمعنى بعدوا بعدا أى هلكوا واللام لبيان من قيل له بعدا ووضع الظاهر موضع الضمير للتعليل ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم ﴾ أى بعد هلاكهم ﴿ قرونا آخرين ﴾ هم قوم صالح ولوط وشعيب عليهم السلام وغيرهم ﴿ ما تسبق من أمة أجلها ﴾ أى ما تتقدم أمة من الأمم المهلكة الوقت الذى عين لهلاكهم أى ما تهلك أمة قبل مجىء أجلها ﴿ وما يستأخرون ﴾ ذلك لأجل بساعة وقوله تعالى :

﴿ ثم أرسلنا رسلنا ﴾ عطف على أنشأنا لكن لا على معنى أن إرسالهم متراخ عن إنشاء القرون المذكورة جميعا بل على معنى أن إرسال كل رسول متأخر عن إنشاء قرن مخصوص بذلك الرسول كأنه قيل ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين قد أرسلنا إلى كل قرن منهم رسولا خاصا به والفصل بين المعطوفين بالجملة المعترضة الناطقة بعدم تقدم الأمم أجلها المضروب لهلاكهم للمسارعة إلى بيان هلاكهم على وجه إجمالى ﴿ تترى ﴾ أى متواترين واحدا بعد واحد من الوتر وهو الفرد والتاء بدل من الواو كما فى توليج وينقوا والألف للتأنيث باعتبار أن الرسل جماعة وقرىء بالتنوين على أنه مصدر بمعنى الفاعل وقع حالا وقوله تعالى ﴿ كلما جاء أمة رسولها كذبوه ﴾ استئناف مبين لمجىء كل رسول لأمته ولما صدر عنهم عند تبليغ الرسالة والمراد بالمجىء

إما التبليغ وإما حقيقة المجيء للإيذان بأنهم كذبوه فى أول الملاقاة وإضافة الرسول إلى الأمة مع إضافة كلهم فيما سبق إلى نون العظمة لتحقيق أن كل رسول جاء أمته الخاصة به لا أن كلهم جاءوا كل الأمم والإشعار بكمال شناعتهم وضلالهم حيث كذبت كل واحدة منهم رسولها المعين لها وقيل لأن الإرسال لائق بالمرسل والمجيء بالمرسل إليهم ﴿ فأتبعنا بعضهم بعضا ﴾ فى الهلاك حسبما تبع بعضهم بعضا فى مباشرة أسبابه التى هى الكفر والتكذيب وسائر المعاصى ﴿ وجعلناهم أحاديث ﴾ لم يبق منهم إلا حكايات يعتبر بها المعتبرون وهو اسم جمع للحديث أو جمع أحدوثة وهى ما يتحدث به تلهيا[1] كأعاجيب جمع أعجوبة وهى ما يتعجب منه أى جعلناهم أحاديث يتحدث بها تلهيا وتعجبا ﴿ فبعداً لقوم لا يؤمنون ﴾ اقتصر ههنا على وصفهم بعدم الإيمان حسبما اقتصر على حكاية تكذيبهم إجمالا وأما القرون الأولون فحيث نقل عنهم ما مر من الغلو وتجاوز الحد فى الكفر والعدوان وصفوا بالظلم .

﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا ﴾ هى الآيات التسع من اليد والعصا والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات والطاعون ولامساغ لعد فلق البحر منها إذ المراد هى الآيات التى كذبوها واستكبروا عنها ﴿ وسلطان مبين ﴾ أى حجة واضحة ملزمة للخصم وهى إما العصا وإفرادها بالذكر مع اندراجها فى الآيات لما أنها أم آياته عليه الصلاة والسلام وأولاها وقد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها ثعبانا وتلقفها لما أفكته السحرة حسبما فصل فى تفسير سورة طه وأما التعرض لانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها وحراستها وصيرورتها شمعة وشجرة خضراء مثمرة ودلوا ورشاء وغير ذلك مما ظهر منها من قبل ومن بعد فى غير مشهد فرعون وقومه .فغير ملائم لمقتضى المقام وإما نفس الآيات كقوله إلى الملك القرم وابن الهمام الخ عبر عنها

(١) فى ١٠ : لهوا .

بذلك على طريقة العطف تنبيها على جمعها لعنوانين جليلين وتنزيلا لتغايرهما منزلة التغاير الذاتى .

﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ أى أشراف قومه خصوا بالذكر لأن إرسال بنى إسرائيل منوط بآرائهم لا بآراء أعقابهم ﴿ فاستكبروا ﴾ عن الانقياد وتمردوا ﴿ وكانوا قوما عالين ﴾ متكبرين متمردين ﴿ فقالوا ﴾ عطف على استكبروا وما بينهما اعتراض مقرر للاستكبار أى كانوا قوما عادتهم الاستكبار والتمرد أى قالوا فيما بينهم بطريق المناصحة ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾ ثنى البشر لأنه يطلق على الجمع كما فى قوله تعالى (فإما ترين من البشر أحدا) ولم يثن المثل نظرا إلى كونه فى حكم المصدر وهذه القصص كما ترى تدل على أن مدار شبه المنكرين للنبوة قياس حال الأنبياء على أحوالهم بناء على جهلهم بتفاصيل شؤون الحقيقة البشرية وتباين طبقات أفرادها فى مراقى الكمال ومهاوى النقصان بحيث يكون بعضها فى أعلى عليين وهم المختصون بالنفوس الزكية المؤيدون بالقوة القدسية المتعلقون لصفاء جواهرهم بكلا العالمين الروحانى والجسمانى يتلقون من جانب ويلقون من جانب ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل إلى جناب الحق وبعضها فى أسفل سافلين كأولئك الجهلة الذين هم كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴿ وقومهما ﴾ يعنون بنى إسرائيل ﴿ لنا عابدون ﴾ أى خادمون منقادون لنا كالعبيد وكأنهم قصدوا بذلك التعريض بشأنهما عليهما الصلاة والسلام وحط رتبتهما العلية عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية واللام فى لنا متعلقة بعابدون وقدمت عليه رعاية للفواصل والجملة حال من فاعل نؤمن مؤكدة لإنكار الإيمان لهما بناء على زعمهم الفاسد المؤسس على قياس الرياسة الدينية على الرياسات الدنيوية الدائرة على التقدم فى نيل الحظوظ الدنية من المال والجاه كدأب قريش حيث قالوا لو كان خيرا ماسبقونا إليه وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وجهلهم بأن مناط الاصطفاء للرسالة هو السبق فى حيازة ما ذكر من النعوت العلية وإحراز الملكات السنية جبلة واكتسابا

﴿ فكذبوهما ﴾ أى فتمادوا على تكذيبهما وأصروا واستكبروا استكبارا ﴿ فكانوا من المهلكين ﴾ بالغرق فى بحر قلزم .

﴿ ولقد آتينا ﴾ أى بعد إهلاكهم وإنجاء بنى إسرائيل من ملكتهم ﴿ موسى الكتاب ﴾ أى التوراة وحيث كان إيتاؤه عليه الصلاة والسلام إياها لإرشاد قومه إلى الحق كما هو شأن الكتب الإلهية جعلوا كأنهم أوتوها فقيل ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ أى إلى طريق الحق بالعمل بما فيها من الشرائع والأحكام وقيل أريد آتينا قوم موسى فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه كما فى قوله تعالى (على خوف من فرعون وملئهم) أى من آل فرعون وملئهم ولا سبيل إلى عود الضمير إلى فرعون وقومه لظهور أن التوراة إنما نزلت بعد إغراقهم لبنى إسرائيل وأما الاستشهاد على ذلك بقوله (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) فمما لا سبيل إليه ضرورة أن ليس المراد بالقرون الأولى ما يتناول قوم فرعون بل من كان [قبلهم][1] من الأمم المهلكة خاصة كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط كما سيأتى فى سورة القصص ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية ﴾ وأية آية دالة على عظيم قدرتنا بولادته منها من غير مسيس بشر فالآية أمر واحد نسب إليهما أو جعلنا ابن مريم آية بأن تكلم فى المهد فظهرت منه معجزات جمة وأمه آية بأنها ولدته من غير مسيس فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها والتعبير عنهما بما ذكر من العنوانين وهما كونه عليه الصلاة والسلام ابنها وكونها أمه عليه الصلاة والسلام للإيذان من أول الأمر بحيثية كونهما آية فإن نسبته عليه الصلاة والسلام إليها مع أن النسب إلى الآباء دالة على أن لا أب له أى جعلنا ابن مريم وحدها من غير أن يكون له أب وأمه التى ولدته خاصة من غير مشاركة الأب آية وتقديمه عليه الصلاة والسلام لأصالته فيما ذكر من كونه آية كما أن تقديم أمه فى قوله تعالى (وجعلناها وابنها آية للعالمين) لأصالتها فيما نسب إليها من الإحسان والنفخ .

---

(١) سقطت من ط .

﴿ وآويناهما إلى ربوة ﴾ أى أرض مرتفعة قيل هى إيليا أرض بيت المقدس فإنها مرتفعة وأنها كبد الأرض وأقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا على ما يروى عن كعب وقيل دمشق وغوطتها وقيل فلسطين والرملة وقيل مصر فإن قراها على الربا وقرىء بكسر الراء وضمها ورباوة بالكسر والضم ﴿ ذات قرار ﴾ مستقر من أرض منبسطة سهلة يستقر عليها ساكنوها وقيل ذات ثمار وزروع لأجلها يستقر فيها ساكنوها ﴿ ومعين ﴾ أى وماء معين ظاهر جار فعيل من معن الماء إذا جرى وأصله الأبعاد فى المشى أو من الماعون وهو النفع لأنه نفاع أو مفعول من عانه إذا أدركه بالعين فإنه لظهوره يدرك بالعيون وصف ماؤها بذلك للإيذان بكونه جامعا لفنون المنافع من الشرب وسقى ما يسقى من الحيوان والنبات بغير كلفة والتنزه بمنظره المونق ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾ حكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه الإجمال لما خوطب به كل رسول فى عصره جىء بها إثر حكاية إيواء عيسى عليه السلام وأمه إلى الربوة إيذانا بأن ترتيب مبادى التنعم لم يكن من خصائصه عليه السلام بل إباحة الطيبات شرع قديم جرى عليه جميع الرسل عليهم السلام ووصفوا به أى وقلنا لكل رسول كل من الطيبات واعمل صالحا فعبر عن تلك الأوامر المتعددة المتعلقة بالرسل بصيغة الجمع عند الحكاية إجمالا للإيجاز وفيه من الدلالة على بطلان ما عليه الرهابنة من رفض الطيبات مالا يخفى وقيل حكاية لما ذكر لعيسى عليه السلام وأمه عند إيوائهما إلى الربوة ليقتديا بالرسل فى تناول ما رزقا وقيل نداء وخطاب له والجمع للتعظيم وعن الحسن ومجاهد وقتادة والسدى والكلبى رحمهم الله تعالى أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحده على دأب العرب فى مخاطبة الواحد بلفظ الجمع وفيه إبانة لفضله وقيامه مقام الكل فى حيازة كمالاتهم والطيبات ما يستطاب ويستلذ من مباحات المآكل والفواكه حسبما ينبىء عنه سياق النظم الكريم فالأمر للترفيه ﴿ واعملوا صالحا ﴾ أى عملا صالحا فإنه المقصود منكم والنافع عند ربكم ﴿ إنى بما تعملون ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة ﴿ عليم ﴾ فأجازيكم عليه .

﴿ وإن هذه ﴾ استئناف داخل فيما خوطب به الرسل عليهم السلام على الوجه المذكور مسوق لبيان أن ملة الإسلام والتوحيد مما أمر به كافة الرسل عليهم السلام والأمم وإنما أشير إليها بهذه للتنبيه على كمال ظهور أمرها فى الصحة والسداد وانتظامها بسبب ذلك فى سلك الأمور المشاهدة ﴿ أمتكم ﴾ أى ملتكم وشريعتكم أيها الرسل ﴿ أمة واحدة ﴾ أى ملة وشريعة متحدة فى أصول الشرائع التى لا تتبدل بتبديل الأعصار وقيل هذه إشارة إلى الأمم المؤمنة للرسل ، والمعنى إن هذه جماعتكم جماعة واحدة متفقة على الإيمان والتوحيد فى العبادة ﴿ وأنا ربكم ﴾ من غير أن يكون لى شريك فى الربوبية وضمير المخاطب فيه وفى قوله تعالى[1] ﴿ فاتقون ﴾ أى فى شق العصا والمخالفة بالإخلال بمواجب ما ذكر من اختصاص الربوبية بى للرسل والأمم جميعا على أن الأمر فى حق الرسل للتهييج والإلهاب وفى حق الأمم للتحذير والإيجاب والفاء لترتيب الأمر أو وجوب الامتثال به على ما قبله من اختصاص الربوبية به تعالى واتحاد الأمة فإن كلا منهما موجب للاتقاء حتما وقرىء وأن هذه بفتح الهمزة على حذف اللام أى ولأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون أى إن تتقون فاتقون كما مر فى قوله تعالى (وإياى فارهبون) وقيل على العطف على ما ، أى إنى عليم بأن أمتكم أمة الخ وقيل على حذف فعل عامل فيه أى واعلموا أن هذه أمتكم الخ وقرىء وأن هذه على أنها مخففة من أو ﴿ فتقطعوا أمرهم ﴾ حكاية لما ظهر من أمم الرسل بعدهم من مخالفة الأمر وشق العصا والضمير لما دل عليه الأمة من أربابها أو لها على التفسيرين والفاء لترتيب عصيانهم على الأمر لزيادة تقبيح حالهم أى تقطعوا أمر دينهم مع اتحاده وجعلوه قطعا متفرقة وأديانا مختلفة ﴿ بينهم زبرا ﴾ أى قطعا جمع زبور بمعنى الفرقة ويؤيده قراءة زبرا بفتح الباء جمع زبرة وهو حال من أمرهم أو من واو تقطعوا أو مفعول ثان له فإنه متضمن لمعنى جعلوا وقيل كتبا فيكون مفعولا ثانيا أو حالا من أمرهم على

---

(١) فى ١٠ جلا وعلا .

تقدير المضاف أى مثل زبر وقرىء بتخفيف الباء كرسل فى رسل ﴿ كل حزب ﴾ من أولئك المتحزبين ﴿ بما لديهم ﴾ من الدين الذى اختاروه ﴿ فرحون ﴾ معجبون معتقدون أنه الحق .

﴿ فذرهم فى غمرتهم ﴾ شبه ما هم فيه من الجهالة بالماء الذى يغمر القامة لأنهم مغمورون فيها لاعبون بها وقرىء غمراتهم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والفاء لترتيب الأمر بالترك على ماقبله من كونهم فرحين بما لديهم فإن انهماكهم فيما هم فيه وإصرارهم عليه من مخايل كونهم مطبوعا على قلوبهم أى اتركهم على حالهم ﴿ حتى حين ﴾ هو حين قتلهم أو موتهم على الكفر أو عذابهم فهو وعيد لهم بعذاب الدنيا والآخرة وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى له عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيره وفى التنكير والإبهام ما لا يخفى من التهويل ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به ﴾ أى نعطيهم إياه ونجعله مددا لهم فما موصولة وقوله تعالى ﴿ من مال وبنين ﴾ بيان لها وتقديم المال على البنين مع كونهم أعز منه قد مر وجهه فى سورة الكهف لا خبر لأن وإنما الخبر قوله تعالى ﴿ نسارع لهم فى الخيرات ﴾ على حذف الراجع إلى الاسم أى أيحسبون أن الذى نمدهم به من المال والبنين نسارع به لهم فيما فيه خيرهم وإكرامهم على أن الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه وقوله تعالى ﴿ بل لا يشعرون ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى كلا لا نفعل ذلك بل هم لا يشعرون بشىء أصلا كالبهائم لا فطنة لهم ولا شعور ليتأملوا ويعرفوا أن ذلك الإمداد استدراج لهم [واستجرار][1] إلى زيادة الإثم وهم يحسبونه مسارعة لهم فى الخيرات وقرىء يمدهم على الغيبة وكذلك يسارع ويسرع ويحتمل أن يكون فيها ضمير الممد به وقرىء يسارع مبنيا للمفعول .

﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾ استئناف مسوق لبيان من له

(١) سقطت من ١٠ .

المسارعة فى الخيرات إثر اقناط الكفار عنها وإبطال حسبانهم الكاذب أى من خوف عذابه حذرون ﴿ والذين هم بآيات ربهم ﴾ المنصوبة والمنزلة ﴿ يؤمنون ﴾ بتصديق مدلولها ﴿ والذين هم بربهم لا يشركون ﴾ شركا جليا ولا خفيا ولذلك أخر عن الإيمان بالآيات والتعرض لعنوان الربوبية فى المواقع الثلاثة للإشعار بعليتها للإشفاق والإيمان وعدم الإشراك ﴿ والذين يؤتون ما آتوا ﴾ أى يعطون ما أعطوه من الصدقات وقرىء يأتون ما أتوا أى يفعلون ما فعلوه من الطاعات وأياما كان فصيغة الماضى فى الصلة الثانية للدلالة على التحقق كما أن صيغة المضارع فى الأولى للدلالة عن الاستمرار ﴿ وقلوبهم وجلة ﴾ حال من فاعل يؤتون أو يأتون أى يؤتون ما آتوه أو يفعلون من العبادات ما فعلوه والحال أن قلوبهم خائفة أشد الخوف ﴿ أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ أى من أن رجوعهم إليه عز وجل على أن مناط الوجل ألا يقبل منهم ذلك وألا يقع على الوجه اللائق فيؤاخذوا به حينئذ لابمجرد رجوعهم إليه تعالى وقيل لأن مرجعهم إليه تعالى والموصولات الأربعة عبارة عن طائفة واحدة متصفة بما ذكر فى حيز صلاتها من الأوصاف الأربعة لا عن طوائف كل واحدة منها متصفة بواحد من الأوصاف المذكورة كأنه قيل (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) و(بآيات ربهم يؤمنون) الخ وإنما كرر الموصول إيذانا باستقلال كل واحدة من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حيالها وتنزيلا لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بها وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد رتبتهم فى الفضل أى أولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة خاصة دون غيرهم ﴿ يسارعون فى الخيرات ﴾ أى فى نيل الخيرات التى من جملتها الخيرات العاجلة الموعودة على الأعمال الصالحة كما فى قوله تعالى (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) وقوله تعالى (وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) فقد أثبت لهم ما نفى عن أضدادهم خلا أنه غير الأسلوب حيث لم يقل أولئك نسارع لهم فى الخيرات بل أسند المسارعة إليهم إيماء إلى كمال